ست نساء وستة رجال

يوسف السباعي

ست نساء وستة رجال

يوسف السباعي

يطلب من مكتبة مصر
٣ كامل صدقي - الفجالة

مقدمة

اليكم ست نساء وستة رجال ٠٠ تتمة للاثنى عشرة أمراة والاثنى عشر رجلا ٠ وبقية من هؤلاء وهؤلاء لم يتسع لها الكتابان السابقان ٠

وانى لأذكر عقب ظهور كتاب اثنتى عشرة امراة أن كتبت الدكتورة ابنة الشاطىء فى نقد الكتاب تقول ما معناه : إنه كان أولى بى أن اقصر كتابتى على الرجال لأنى كرجل ادرى بفهم مشاعرهم وتحليل نفوسهم ، وأنه كان يجب ان اترك الكتابة عن النساء لواحدة منهن لأنها أعرف بخباياهن واعلم بأحاسيسهن ٠

وصمت حينذاك ٠٠ ولم أحاول المكابرة وقلت لنفسى ٠٠ من يدرى ٠٠ ربما كانت على حق ٠ ثم أصدرت بعد ذلك كتاب اثنى عشر رجلا ٠٠ فاقرته فى نقدها ٠

وكان الأولى بى بعد هذا الا أعود الى الكتابة مرة ثانيـة عن النساء والا اتبع الاثنتى عشرة بست أخر ٠ ولكنى مع ذلك غامرت باصدار كتابى هذا ٠٠ لأنى اشعر فى نفسى انى قد اكون اكثر فهما للنساء من أنفسهن ، وأن التجارب تجعل من الرجل أحيانا مرآة تنعكس عليها صور النساء فتبديهن أكثر وضوحا من الاصل ٠ بل ان المرآة نفسها لا اظنها ـ بغير انعكاسها على رجل ـ تصبح شيئا

حيا جياشا بالأحاسيس ، مفعما بالمشاعر . وقصة المرأة .. لا تكون الا والرجل في حناياها ، وكذا قصة الرجل لا تتسع الا والمرأة ضداها . فان كتبت عن ست نساء فانا اكتب ضمنا عن ستة رجال . وان كتبت عن ستة رجال فلا اظنني استطيع ان امنع ستة النساء من التسلل وحشر انفسهن بين السطور .

وثمة شيء اخر شجعني على الكتابة عن النساء .. وهو ان الدكتورة ابنة الشاطيء نفسها .. كتبت الى رسالة خاصة بعد ان قرأت « انى راحلة » تقول : انها كانت تنتقد فيما سبق كتابتى عن النساء وافراطى فى الكتابة .. ولكن بعد قراءتها لهذا الكتاب وجدت انى أستطيع أن اكتب عنهن كما اشاء . وان افرط فى الكتابة كما اشاء .

وبعد .. اترك الحديث للستة الجديدة تتحدث عن نفسها .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

« يوسف السباعى »

٦ شـــــــاء

امــرأة مغــرورة

اجل يا اخت الروح ، لقد كنت نبيلة ثرية ارستقراطية في بلد المظاهر والغرور ·· وكنت اديبــا بين الناطقين بالضاد ·

الم اقل لك ·· كنت في السماء ·· وكنت في الارض ؟

ودع الصــــبر محب ودعـــك
ذائع من سره ما اســـتودعك

اما الصبر يا توأم الروح فقد استعصى وتعذر ·

يوم وليت ·· ولى ·· وساعة ودعت ودع ·· وما عاد يغني عن فرقتك صبر ، أو يفيد في بعدك عزاء ·

أما السر الذي استودعتك ·· فبرغمي يا حبيب يذاع ·

أنا ان كتمت في نفسي الجوى ·· وحبست في صدري اللوعة ·· فما أستطيع كتم انفاس تستعر ، وزفرات تلتهب ·

اذا حبست الدمعة في المآقي ، انطلقت الآهة من الحنايا ؛ واذا حبست الآهة ·· انسابت الدمعة ·

وكيف أعيش يا حبيب الروح بعدك بغير آهة ، وبغير دمعة ؟

السر الذى استودعتك .. ذائع يا حبيب برغمى .. تنم عنه الآهة ، وتفضحه الدمعة .. وبين الدمعة والآهة ، يتململ اللسان ويتلهف على أن يفضى به ويبوح .

وبين التململ واللهفة .. اتركه ينطلق .

افلا اقل من عود الى الذكرى ! هى عزاء الى حين !

★ ★ ★

لقيتك يا حلوة وبيننا ما بين السماء والأرض .. أنت فى السماء، وانا فى الأرض .. مجازا وفعلا .. اى واش .. كل الظروف التى احاطت بنا فى أول لقاء ، جعلتك سماوية وجعلتنى ارضيا .

كنت تتبوئين احدى مقصورات سباق هليوبوليس ، كما يتبوأ القمر اريكة السماء .. ووجدت بينك وبين القمر شبها شديدا .. اذا اشرق احدكما لم ينافسه فى سمائه كوكب ، تنساب منه الأشعة رطبة ندية ، تغرق العباد بنور بلا حر ، ونشوة بلا خمر .

وكنت انا من عباد الله الذين يتقاسمون النور ويتشاركون النشوة ، قانعين ناعمين ، متجولين فى الأرض .. أرض السباق الحافلة العامرة ، غادين رائحين بين « بادوك » الخيل وبين مدرجات السباق ، حائرة عيونهم .. بين الجياد وبين الخرد الغيد .

وهكذا كان احدنا فى السماء ، والآخر فى الأرض .. شكلا ووضعا وفعلا .. اما مجازا فقد كان بيننا أبعد مما بين السماء والأرض .

كنت نبيلة ثرية ارستقراطية بكل ما فى تلك الكلمة من معان .. وكنت .. ماذا كنت ؟

ماذا اقول ؟ .. وانا ما عرفت فى يوم من الأيام من اكون ؟ كاتب واديب ؟

لو كنا فى غير هذا البلد ، لقلتها بملء فمى ، ولانتصرت أن يحنى لى الناس هاماتهم تحية واجلالا ‥ أما هنا والأديب المجرد لا يعرف كيف يأكل عيشه ‥ أما هنا والبلد يعترف بالجزار والبدال واللحاد والكناس ، كأصحاب مهن ‥ ولا يعترف بالأديب ‥ أما هنا والأديب لا يجسر أن يكتب على بطاقته « أديب » فكيف أقول انى أديب ؟

ومع ذلك فلا مناص من الاعتراف بها ٠

لأننى فعلا ‥ لست سوى ذلك ٠

أجل يا أخت الروح ، لقد كنت نبيلة ثرية أرستقراطية فى بلد المظاهر والغرور ‥ وكنت أديبا بين الناطقين بالضاد ٠

ألم أقل لك ‥ كنت فى السماء ‥ وكنت فى الأرض ؟

وكان أحرى بى فى ذلك اليوم ، أن أنصرف عنك كما انصرفت من قبل فى كل مرة لمحتك فيها من بعد ‥ وأن أنشد لنفسى ذلك القول الذى أعزى به عنك نفسى كلما لقيتك :

« لا ترفعا أنصرف عنك ولا كبرياء ، ولا جحودا عن حسنك ولا جفاء ‥ بل ان جبار اليأس قد خرج بفؤادى عن دائرة نفوذك وعلا به على بسطة سلطانك ٠

أيتها الغادة : كل ما فى الوجود ينوب فى الحالك الا يأسى فانه كالثلج الجامد على رأس الطود تغازله أشعة الشمس طول الأبد فلا يشعر ٠

وقفت منى على قيد خطوتين وبينى وبينك ما بين ابليس والرحمة ‥ فكأننا نجمان تجاورا فى عين الناظر وبينهما بعد السماء عن الأرض وكأنك تنظرين الى ميت ، يفصلك عنه الوقت ، والوقت ما لا يقدر » ٠

كان حريا بى أن أنصرف عنك بهذا القول ، لولا ان أتاح الله لى

من رفعتي من وهاد الأرض الى علياء السماء ·· فاذا بي أجد نفسي في غمضة عين أجلس بجوارك ·

لقد صعدت الى السماء ·· بغير فعل خارق ·· لا موت ، ولا معجزة ·· بل كانت المسألة ابسط مما أتصور ·

رأيت في مقصورتك زميلا قديما من أبناء الذوات ·· كان يجاورني في احدى سنوات الدراسة ، ورفع يده لي محييا عندما التقى بصرانا واشار الى بالصعود ·

ولم أتردد ثانية رغم ادعائي الترفع والاباء ، واحتقار هذه الطبقة من ابناء الذوات ·· بل شققت طريقي بين الأجساد المتراصة حتى وصلت الى المقصورة ·

وتصافحنا ودعاني الى الجلوس فلبيت الدعوة وقام بدور التعارف بيني وبينك ، فأحنيت راسك احناءة تكاد لا تحس ومنحتني نظرة بطرف عينيك ·

ومع ذلك فما احسست بخذلان ولا ضيق ، فقد كان جلوسي على مقربة عنك كاف لكي يجعلني أغض الطرف عن كل اهمال منك أو اعراض ·

كنت احس بنشوة ممتعة ، نشوة أطاحت بذلك اليأس الذي كان يخيم على نفسي كلما لقيتك او نظرت اليك ·

وانتهى شوط السباق الدائر وقتذاك والذي كان يسترعي كل التفاتك ، والذي جعلك تلقينني بذلك الاهمال والاعراض لقطعي عليك استغراقك في مراقبته ، ثم وجدتك تضعين النظار بجانبك وتصفقين بيديك طربا ·· وتلتفتين الينا صائحة وقد استخفك الطرب :

ــ برافو ·· هذه اول مرة اكسب في هذا الموسم ، لقد كان حظي بمبيئا من اوله ، ولكن هذا الكسب سيعوض لي كل الخسارة السابقة ،

فما من أحد قد لعب هذا الحصان ، انه « أوتسيدر » ، ويبدو لى أن الريال سيأتى بعشرة جنيهات •

ثم نظرت الى ووجهت لى الحديث :

ـ ان وجودك سبب لى حظا سعيدا •• يجب أن تبقى معنا الى نهاية السباق حتى أستمر فى الربح •

وكان الأمر الطبيعى أن يسعدنى قولك هذا ، ولكنى ـ وأنا مخلوق غريب لا أفهم نفسى فى كثير من الأحيان ـ وجدتنى أصاب منه بضيق •

وقد يكون السبب الأول لهذا الضيق هو أنك قلت كل حديثك باللغة الانجليزية الجيدة السليمة النطق •• أما السبب الثانى فهو احساسى بأننى أصبحت عندك مجرد تعويذة تجلب لك الحظ •

أما عن السبب الأول فقد ضايقنى لأنه سبب لى يأسا جديدا ، فقد وجدت سلاحى الوحيد الذى كنت آمل فى أن أغزوك به ، وهو سلاح التفوق فى الكتابة والأدب ، قد فل وأصبح لا يجدى معك •• فقد أدركت من لهجتك فى الانجليزية ، انك لا تستطيعين الحديث بالعربية •• بله قراءة أدبها •

وأنا رغم ما قلت عن ضياع قيمة الأدب فى هذا البلد ، شديد الاعتداد بنفسى ـ على الأقل فيما بينى وبين نفسى ـ كأديب •• شديد الغرور ، شديد الثقة ، أحترم نفسى ككاتب أكثر مما أحترمها كأى شىء آخر ـ وقد يكون هذا هو ديدن كل كاتب وأديب ـ وأشعر دائما أن سلاحى الأول فى التفاخر والزهو هو كتابتى وأدبى ، رغم أنها أشياء لا تقدر كثيرا فى هذا البلد •

وهكذا خذلت عندما وجدت أن بينك وبين أدبى حجاب كثيف من جهلك باللغة العربية ، ولم يعد لدى أى أمل فى أن تكونى قد قرأت لى ، أو سمعت بى •

أما عن ضيقى لأنى شعرت أنك قد جعلتنى تعويذة ، فقد كان

مرجعه أيضا الى ذلك الغرور الذى أحسه فى نفسى . فرغم يأسى منك واحساسى بالمدى الشاسع بينى وبينك .. كنت أود ـ اذا ما التقينا ـ أن تجدى فى ميزة فى الشكل او فى الخلق أو فى الثقافة ، اكثر من ميزتى كتعويذة تجلب الحظ .

ويعناد الحمقى المغرورين ، وجدتنى أنهض لأنصرف .. ورغم الحاحك على بالبقاء صممت على مغادرتك مدعيا انى على موعد .

وتركت السباق سائرا على قدمى وسط آلاف العربات المكدسة أمام الميدان .

وعندما خلوت لنفسى بعد ذلك ، عجبت لما فعلت واتهمت نفسى بالجنون .. كيف تلحين على بالجلوس معك فارفض ؟

كيف يحدث منى هذا ، وانا الذى لا يسعدنى فى الحياة اكثر من نظرة اليك من بعد ؟ وماذا ضايقنى منك ؟

حديثك بالانجليزية ؟ وما ذنبك ، وأى جريمة فى ذلك ؟

وماذا اغضبنى من قولك انى جلبت لك الحظ ؟ الم يكن هذا خيرا من أن تقولى انى جلبت لك سوء الحظ ؟

وماذا كنت انتظر منك ؟ اتستبقيننى لأن جمالى قد سحرك ، وانك لا تطيقين فرقتى ؟

يا لى من غر أحمق مأفون ! . لقد أضعت فرصة العمر ! .

وقضيت ليلتى حزينا يائسا ، وظللت مغرقا فى الضيق ، حتى ظهر اليوم التالى عندما تبين لى أن فرصة العمر لم تضع بل هى مقبلة مؤكدة ، فقد انبانى صاحب الجريدة التى أعمل بها أنه قد وصلته دعوة لاحدى حفلات الفروسية وسالنى أن أذهب مندوبا عن الجريدة .

ولم أتردد فى القبول ، فقد كنت أعلم أن مثل هذه الحفلات لا تفوتك ، ووجدت الفرصة قد تسنح للقائك ، والحديث معك ..

لا سيما وأنك بلا شك ما زلت تذكرينني من لقاء الأمس وتذكرين أنى أجلب لك الحظ •

ولقيتك هناك وأسعدنى الحظ بالجلوس بجوارك فى حفلة الشاى التى اقيمت فى النهاية •• ودار بيننا الحديث فعرفت من انا وماذا اعمل ، ولم تبخلى على ببعض كلمات الاعجاب بالادب والأدباء رغم انك لم تقرئى لى •

ولا اكذبك القول •• ان هذه الجلسة بيننا كانت بداية احساس جديد لك فى قلبى ، فقــد تبينت خلال الحديث معــك انك مخلوقة متواضعة لطيفة ذكية رقيقة •

وقلت لى انك قرأت رباعيات الخيام بالانجليزية •• وأنك ترغبين فى قراءتها بالعربية •• فوعدت باحضارها اليك •

وهكذا بدأت الصلة تتوطد بيننــا بواسطة عمر الخيام ، فقــد أحضرت لك الترجمة العربية ، ولكنك لم تفهمى منها حرفا واحدا ، فتطوعت بقراءتها وشرحها لك •

وبدأنا جلساتنا فى خلوات ممتعة هنيئة ، خلوات ملؤها الشاعرية والأوهام اللذيذة والحلم الجميل وأخذت أشرح لك :

غــرد الطير فنبــــه من نعس

وأدر كاســـــك فالعيش خــلس

سل سيف الشمس من غمد الغلس

وانبرى فى الشرق رام أرســـلا

أسهم الأنوار فى هام القلاع

واقبل كل منا على صاحبه بلهفة ونهم •• أنا بالقراءة والشرح واستراق النظر الى وجهك الساحر الوضــاء •• وأنت بالاستماع والشرود والذهول •

وكنت أسير فى طريق حبك بسرعة الصــاروخ •• حتى بلغت

نهايته ·· وبدا لى أنك لا شك سائرة فى نفس الطريق وأننا سنلتقى فى النهاية ويفضى كل منا بمشاعره للآخر ·

ولكنك نكصت على عقبيك فجأة قبل أن تبلغى النهاية ·

لست أدرى لم ؟

أتراك لم تنظرى قط الى المسألة على أنها مسألة حب جاد وأنك كنت تتسلين بى وبالشيام ·· وأنت كنت تضيعين بعض الوقت فى شيء جديد عليك ، وأنك سرعان ما مللته ؟

هل كنت لديك مجرد نوع من التغيير ؟

الله وحده أعلم ·

أما الذى أعلمه ·· فهو أنك بدأت تخلفين المواعيد ·· وبدا لى أنك تتهربين من لقائى ·

وأخذت ــ بدافع الحب الجنــونى ــ ألحف فى الرجاء وألح فى محاولة اللقاء ، حتى صدمت منك صدمة ردتنى الى صوابى وأعادت الى كبريائى وذكرتنى بكرامتى ·

كان ذلك فى حفلة ساهرة طال بنا السهر فيهـا ·· حتى رأيتك لأول مرة ·· ثملة تترنحين ·· وسمعتك تصيحين بى ساخرة :

ــ لم لا تثقل علينا بأشعارك أيها الأديب ؟

ثم التفت الى الجمع الصاخب ، وأردفت بنفس اللهجة الساخرة :

ــ هذا الأحمق المسكين كان يحاول أن يوقعنى فى حبه بقراءة الشعر ·· تصوروا هذا ·· تصوروا ·· أنى أحب هــذا المغرور الساذج ·

ولست أذكر أنى ضربت امرأة فى حياتى قط ·· حتى ولا خادمة ·· ولكنى وجدت مراجلى تغلى بالغضب ·· ووجدت كل ما بى من حلم وهدوء ورقة طبع يتبدد فلا يضحى له أثر ·

ولم اشعر الا ويدى ترتفع وتهبط على وجهك الجميل النبيل بصفعة مدوية .

وغادرت المكان مرتجفا من الغضب تاركا الجميع مغرقين فى الصمت والدهش ، وعندما وصلت الى البيت ارتميت على الفراش منهارا .. كنت أشعر بحزن شديد .. فقد عزت على نفسى أن تهان بين طبقتك الوضيعة .. العالية اسما ، الوضيعة فعلا .

لقد كنت اشعر أنى المسئول عما حدث فقد كان أولى بى ألا أزج بنفسى فى وسطك الفاسد المغرور .. وأن أربأ بها عن الهوان بين هؤلاء الرقعاء المفنثين .

يا للحمق والغباء !

كيف صور لى الوهم .. أنك شاعرة مرهفة الحس .. وكيف أضعت وقتى فى قراءة ما قرأت وشرح ما شرحت ؟ ومرت الأيام بعد ذلك وأنا احاول تضميـــد جراحى .. جراح القلب المطعـون .. والكبرياء المهيضة .

وحاشاى أن أزعم انى ضمدت جراحى ببساطة .. وأننى لفظتك بسهولة .. او لفظ النواة .

لقد كانت عملية نسيانك واحتمال هجرك شاقة مضنية .. ولكنى تحملتها بجلد .. حتى كدت أنساك .

ولكنك عدت تنكئين الجرح .. وترسلين لى مع بعض الأصدقاء من يخبرنى أنك تودين رؤيتى .

وبدا لى أنك تحاولين الثأر .. وأنك مصممة على رد الصفعة التى هويت بها على خدك النبيل فى تلك الليلة .. فلم أرد أن أعطيك الفرصة .. وصممت على الا ألقاك قط .

وعادت الوساطة فى الرجاء .. فزادت بى الشكوك وأيقنت أنك لا بد معدة العدة لرد الصفعة ، فزدت الحاحا فى القطيعة .

لقد كنت اعتبر كل ما بيننا قد وصل الى نهايته وأنه لا فائدة في ان آمل في مثلك خيرا بعد ما كشفت عن نفسيتك .

وبلغني بعد ذلك انك مريضة وانك تطلبين ان احضر لك رباعيات الخيام لأقرؤها لك .

وضحكت ساخرا .. ورددت على من ابلغني بذلك الرد الشهير الساخر « قاني ؟!! » .

لقد كنت مصمما على ان اقلب حبي لك كرها .. وكنت احس انى افلحت في ذلك .

حتى وصلتني منك رسالة .. قلبت مشاعري رأسا على عقب .. فتحت الرسالة فاذا بها مكتوبة بالانجليزية واذا بها ما يلي :

« ....

أعذرني اذا ما كتبت اليك بالانجليزية .. فاني اريد أن أكتب لك اشياء دقيقة .. لا أظنني استطيع أن اعبر عنها باللغة العربية .. وليس الذنب ذنبي اذا لم أستطع ذلك .. بل ذنب أولئك الذين علموني .. وجعلوني بطريقة تعليمهم اشبه بأجنبية غريبة في بلدي ...

أجل .. ان الذنب ليس بذنبي .. وليس أدل على ذلك من أن تعرف انه عندما ترك لي الأمر .. انى اقبلت على قراءة العربية ... وانني رغم ضآلة معلوماتي فيها .. قد قرأت جميع مؤلفاتك بها .. وليس أسهل على من أن اثبت لك ذلك ... فأسرد لك رأيي فيها وملاحظاتي عليها ..

ولكن لا أظن هذا وقته .. بل يكفي أن تصدقني وتثق في قولي .. والا ذهب كل كلامي سدى .. وضاعت محاولتي أدراج الرياح .

انى أريد منك الثقة بي وتصديق كل ما أقول .

ولن يزيد ما أقول عن بضع كلمات :

انى أحبك .. وأريد أن أراك .

راقدة كما أنا مسجاة على فراش المرض ·· وبجوارى كوم مكدس من كتبك التى التهمتها واحدا ·· واحـدا ·· وأنا التى كنت اكاد لا اقرأ الصحف والمجلات ·

راقدة ·· متعبة ·· منهكة الأعصاب ·· خائرة القوى ·· قد الح على المرض ·· لا يكاد ذهنى يذكر سـواك ·· ولا تكاد عينى ــ مفتوحة أو مغمضة ــ تبصر غيرك ·

لست أدرى ·· كيف حدث لى هذا ؟

أهى كتبك ·· وطريقة تفكيرك ·· وفيض مشاعرك ؟

أهو المرض الملح الذى تركنى اشبه بالصرعى ؟

أهى الذكريات الحلوة الهادئة الشاعرية ؟ ·

أم تراها الصفعة التى أدميت بها خدى وأعدتنى بها الى صوابى ؟

لست أعتب عليك ·· فقد تقادمت مرحلة العتاب ·· وبات كل ما أحسه لك ·· لهفة عليك ·· وحنينا اليك ·

لقد صنعت منى مخلوقة جديدة ·· أو أعدتنى الى معدنى الطيب وأزلت من نفسى شوائب الوسط الخبيث الذى أحيا فيه ·

نفسك الطيبة ، وخلقك القـويم ، وكتابتك العجيبة ، وصفعتك وهجرك ·· كل ذلك صهرنى وطهرنى ·

انى أحبك ·· واريدك ·· لنبدأ معا عهدا جديدا ·

ولا اظنك تخذلنى ·· وانت الرفيق الكريم ·· بعد كل ما قلت لك ·

أرجوك ·· تعال ·· »·

★ ★ ★

ولم أخذلك ·· فقد صفحت عنك وسعيت اليك بعد أن أذابتنى رسالتك ، ولكنك أنت التى خذلتينى فرحلت ، قبل أن أصل ·

لقد أودت بك العلة ، فلم تمهلك حتى أراك ·

لقد تعجلت الرحيل يا منية النفس ·· فلم تنتظرى حتى تسمعى

استغفاری وتبصرین ندمی علی عنادی وعلی هجرك ·· لقد دعوتنی للمجیء ·· فماذا كان علیك لو انتظرت وصولی ؟

فیم التعجل ·· یا حسلوة الروح ·· وأنت الداعیة اللهفی المتشوقة ؟

والی أین یحملونك هؤلاء القساة الغلاظ الأكباد ؟ ·

أهكذا بت لا أملك لك الا خطوات قصاراً ·· أسیرها وراءك وسط هذا الحشد من الباكین ؟ ·

أهكذا لا یملك عابدك الا جلسة صامتة أمام قبرك ·· یكتم لوعته ویحبس دمعه ·· ثم یعود فی بهمة اللیل كالأشباح الساریة مستغفرا نادما ·· یحرقه الشوق ·· ویلهبه الأسى ··

یقرع السن علی أن لم یكن   زاد فی تلك الخطا اذ شیعك

امــــرأة مخــدوعة

أهكذا تتطاير المبادىء والاخلاص ، في غمضة عين ، امام جسد عار وجيفة نتنة ؟

أهكذا الرجال كلهم كالكلاب مهما حسن نوعهم وكرم أصلهم ‥ لا يتورعون عن أن يدسوا أنوفهم في أقرب كوم للقمامة يلوح لهم ؟

سيدي العزيز :

من مجيري من يأس قاتل وخذلان مميت ؟

اني اكتب اليك ، وبجسدي رجفة وبقلبي حرقة ‥ ولا أدري وأنا أكتب ، لم أكتب ، ولا ماذا ساكتب ‥ ولكن يبدو لي أن الكتابة قد تسكت الرجفة وتطفيء الحرقة ، ولو الى حين ٠

دعني أسـألك ‥ سـؤالا يدور في رأسي ، ويلح على نفسي ٠ سؤالا ‥ يخيل الى ان على الاجابة عنه يتوقف تقرير مصيري وتغيير حاضري ، واختياري للسبيل الذي ساسلكه في مستقبل حياتي ٠

أجبني بصراحة ٠ اجبني كرجل ‥ مجرد رجـل ‥ دع عنك فلسفة الكتابة ، ودع التعقيد والالتواء ‥ قل لا ، أو نعم ٠

هؤلاء الرجال .. هل كلهم من نفس المعدن الخبيث ، والطينة القذرة .. ؟

لا تثر ولا تغضب فتندفع لتدافع عن جنسك .. الجنس الوضيع الحقير .. الوالغ فى كل اناء ، الناهش من كل جيفة ، الشارب من كل مستنقع قذر ، الطماع الخداع ، الخائن الأشر .

لا تندفع فتقول لا .. ولا تصيبك الحمية فترد على سبابى باقذع منه .. فما قصدت به سبابا .. بل هو مجرد وصف .. لم أجد خيرا منه .. لأصور نظرتى الى جنسكم . الجنس الساقل !

قبل أن تجيب استمع الى قصتى ، وافهم لم أسأل سؤالى هذا ..؟ وتأكد اننى لا اتمنىّ فى حياتى شيئا اكثر من أن تجيب بلا .. وأن تقول لى .. انه ما زال على الأرض من بين هؤلاء الرجال من هو أطيب معـدنا وانقى طينة وان هـذا هو كل ما بقى لى من أمل فى الحياة ، ورجاء فى المستقبل .

تبدا قصتى بداية عادية جدا كما تبدا قصة كل زوجة .. رزقها الله ـ كما يقولون ـ بالعدل .. ووفقها الى زوج طيب .

ولست أريد أن أضيع الوقت فى سرد تفاصيل لا اشك فى أنها ستنطبق على المئـات ، بل الألوف ، من الزوجات غيرى .. والتى لا أظنها تعطينى طابعا مميزا ، ولكن يبدو لى أن من الخير أن أعطيك كروكيا سريعا يعينك على تقدير موقفى وفهم مشاعرى .

أنا ابنة أحد موظفى الحكومة .. موظف يعتبر الى حد ما كبيرا .. وأن كان دخله اذا ما قورن بعـدد أفراد أسرته الغنية بالأبناء لا يكاد يجعل منها أكثر من أسرة متوسطة تقطن فى شقة بالايجار ، وتصرف الدخل عن آخره بين الملابس ومصاريف المدارس ، واللحمة ، والخضار .

وكان سوقنا ـ أنا وأختى ـ فى الزواج رائجا .. فقد كنا نتمتع

بكل مواهب الزواج من سمعة حسنة ، ومظهر جميل ، وعائلة طيبة ، وأب ذي مركز محترم •

وهكذا تسربنا ، مع العرسان ، الواحدة تلو الأخرى ، وخرجت بدوري مع رفيق العمر تاركة دار أبي الى حيث أضحيت أنا نفسي ربة دار •

ولا اكتمك القول •• انني لم أر في زوجي في بادىء الأمر مايسمونه فتى الأحلام ، ولم يصادف منظره هوى في نفسي ، ولكنه مع ذلك كان — على بعضه — مقبولا •• وكانت مجموعة مزاياه لا تدع مجالا لفتاة مثلي في التردد في قبوله •

كان شابا ذا شهادة عليا وذا عمل حكومي يتناسب مع شهادته •• متوسط القامة ، نحيل الجسم ، أسمر البشرة ، ليس به ما يلفت وليس به ما ينفر •• بادي الهدوء والسكينة ، أميل الى الصمت والاطراق والحياء •• وعندما سأل أبي عنه أنبىء بأنه نموذج لحسن السير والسلوك •

هكذا كان زوجي عندما قررنا قبوله •• وعندما خرجنا من الدار معا لنبدأ حياتنا المشتركة •• ولم أكن وقتذاك احس بفرحة مطلقة •• بل كانت فرحتي قلقة متشككة مما يخبئه لي الغد المجهول ، وكان يتملكني شعور المطبقة بيدها على « بخت » توشك أن تفتحه لترى ما به •• لا فرق بيني وبينها سوى أني كنت انتظر الأيام لتفتح لي بختي •• وتريني أي مخلوق قد ساقه القدر الى لأشد نفسي معه •• وأقرن حظي بحظه ، ومستقبلي بمستقبله مدى الحياة •

وبدأنا الحياة معا ، في شقة في احدى عمارات مصر الجديدة القائمة على أطرافها والتي لا تزيد شققها على ست أو سبع •• وأخذنا ننسق الأثاث في الغرف ونرص الأصص في الشرفات حتى

بدت الشقة المتواضعة ذات الثلاث غرف وكأنها قصر منيف ، واحسست فيها بحلاوة الاستقرار والهدوء ٠

ومرت بى الأيام تحمل لى مزيدا من هدوء ومزيدا من استقرار ، وتكشف لى البخت المخبأ ٠٠ يملؤنى رضا وهناء ٠٠ وبت اشعر انى امرأة موفقة سعيدة الحظ ٠٠ فقد وجدت فى زوجى انسانا لا تطمع المرأة فى خير منه ٠

لقد غير الزواج نظرتى فى الزوج ٠٠ فقد كنت ـ وانا فتاة ـ أرى الزوج المثالى فى رجل طويل القامة ، عريض الصدر ، حلو التقاطيع ، جذاب الملامح ٠٠ كنت أراه خليطا محببا من نجوم السينما ٠٠ يملك عربة فخمة يجلسنى فيها بجواره ٠ ويحملنى بها كل يوم لنجوب الطرقات حتى يستقر بنا المقام فى بقعة خلوية نتناجى فيها ونتبادل أحاديث الهوى ٠٠ ثم يعود بى فى النهاية الى فيللتنا الانيقة المليئة بالخدم والحشم ٠

تلك كانت أوهامى ، وأنا فتاة أحيا على عذب الأوهام ، فلما تزوجت علمتنى التجربة أن أوهامى كانت عبث صبية وأرتنى أن الزوج المثالى شيء آخر لا صلة له بما كنت اتخيل ، وانه لا ضرورة هناك لأن يكون عريض الصدر ممدود القامة ، ولا ضرورة أن يكون صاحب عربة أو صاحب فيللا ، بل أهم من ذلك كله ٠٠ أن يكون شريكا جيدا ٠

ان الزوج المثالى هو الشريك الذى يقوم بنصيبه فى الشركة الزوجية خير قيام ٠٠ ولا اظن ان هناك شركة يمكن أن تفلح أو يقوم لها بناء على غير الحب والوفاء والثقة المتبادلة ، وحسن التفاهم ٠

ان الزوجة بعد الزواج لا تتأمل كثيرا تقاطيع زوجها ، ولا تقضى الساعات فى قياس طوله أو عرضه ٠٠ ولكنه يسعدها جدا أن يدخل عليها الزوج ببسمة حلوة ووجه بشوش ، وأن يشعرها انه لم ينس

التوافه التى طلبتها منه ، وأن ينظر اليها بعين الرضا ·· كأن الأرض لم تنبت خيرا منها ·· !

يسعد الزوجة أن يكون هناك توافق فى المشارب بينها وبينه ·· وأن يكون هناك تماثل فى الطباع ، وأن يحب ما تحب ويكره ما تكره·

ان الزوج المثالى هو الذى يجعل من زوجته وبيتــه بغيته فى الحياة ·· والذى يشعر مخلصـــا أنهما خير ما يسبب له السعادة والهناء ·· فهو يقصدهما قريرا راضيا ·

الزوج المثالى هو الذى لا يفور ولا يثور لتوافه الأمور ، والذى يتغاضى عن هنات الدار ويلتمس الأعذار ·

هكذا أضحى الزوج المثالى فى نظرى ·· بعد أن تزوجت ·

وهكذا أيضا كان زوجى ·

أفلا يحق لى أن أحمد الله وأن أعتبر نفسى امرأة سعيدة الحظ ·· ؟

ومن طبيعة الانسان فى هذه الحياة ·· أن يتعود منهـــا الشىء الطيب حتى يضحى لديه غير ذى قيمة ·· وأن يتعود النعمة فلا يعود يحس بها نعمة ·· بل يراها أمرا طبيعيا ·· ولا يعود يشعر منها بلذة النعمة ·· ولا يفكر قط فى أن يحمد الله عليها ، بعد أن اعتادها حتى نسيها ·

ولكنى لم أكن كذلك ·· لا لميزة فى عن بقية البشر ·· بل لأنى كنت أجد دائما ما يذكرنى بما أنا فيه من نعمة ·· فلم أعتدها ولم أنسها قط ·

ان المقارنة هى الأصل فى احساسنا بالمتعة أو الشقاء ، فنحن اذا أحسسنا بالشبع ثم رأينا كل من حولنا شبعان لم نحس كثــير متعة ·· واذا أمسكنا رغيفا ووجدنا مثله فى يد كل انسان ·· لم

نشعر بميزة الرغيف ، ولكننا اذا ملكنا الرغيف ورأينا الناس حولنا يتضورون جوعا ويتلهفون على الكسرة ٠٠٠ أحسسنا بنعمة الرغيف ٠٠ وعرفنا قيمته ٠

ان ثوب البفتة الذى نرتديه قد نحس به نعمة ٠٠ وقد نحس به نقمة ٠٠ وقد لا نحس به ٠٠ اننا نراه نعمــة لو خفضنا البصر الى غيرنا من الحفاة العراة ، ونقمة لو رفعنا البصر الى لابسى الخز والديباج ٠٠ ولا نحس به أبدا لو نظرنا الى سوانا من لابسى البفتة والدمور ٠

ولقد كنت دائما أحس ٠٠ أنى كاسية وسط عراة ٠٠ وريانة بين ظمأى ٠٠ كنت أحس أننى وحدى صاحبة الرغيف ٠٠ وغيرى يتضور جوعا ٠٠ أو يتعلل بالفتات ٠

كانت الظروف المحيطة بى تبعثنى على أن أحسد نفسى فقد كانت احدى أختى تقضى معظم حياتها غضبى فى منزل أبيها ، فقــد كان زوجها انسانا نفورا عصبيا سخيفا نكديا ، أما الثانية فقد استقر بها المقام فى بيت أبى فعلا ٠٠ بعد أن أبت العودة الى زوجها ، لفرط ادمانه على الخمر والميسر ، ولأنه لا يعود الى داره الا قبيل الفجر ٠

ولم يكن هذا وحده هو مستوى المقارنة الذى اقيس اليه حياتى الزوجية الهادئة الناعمة القريرة ٠٠ بل كان هناك مستوى أقل منه انخفاضا وأكثر سوءا ٠٠ وهو مستوى الجيرة التى أعيش فيها ، أو على وجه أدق قاطنى العمارة التى أسكنها ٠

كانت الأسرة الأولى من الأربع أسر التى تقطن العمارة : تقطن الشقة الأولى من الطابق الأول ، وكانت تتكون من قاض وامرأته ٠٠ وأشك كثيرا فى أنهما كانا متمتعين بأى نوع من السعادة الزوجية والهدوء المنزلى ٠

وكانت الأسرة الثانية تقطن في الشقة المواجهة ·· وربها مدير مستخدمي احدى الوزارات ·· وهو متهم دائما من زوجته ـ ان صدقا وان كذبا ـ بأنه يوشك أن يتزوج امرأة اخرى ·

أما الأسرتان الباقيتان ، فاحداهما تقطن أمامنا في الطابق الثانى والأخرى تقطن فوقنا في الطابق الثالث ·

كانت احداهما ، وهي التى تقطن امامنا ، مكونة من محام شاب يمت الى زوجي بصلة قرابة ·· وزوجة لعوب براقة فاتنة ·· تميل بسليقتها الى الخلاعة والتبهرج ·

ولم يكن هناك رجل من أهل العمارة لا يبادلها البسمات والتحيات سوى زوجي ·· فقد كان يشمئز من مرآها ·· وكان يود لو استطاع أن ينصح قريبه حتى يردعها او يطلقها ، فقد كان يراها وصمة في جبين العائلة وجرثومة فتاكة ·

ولكني كنت أصده عن رغبته وأرجوه ألا يتدخل فيما لا يعنيه ·

كنت أقول له هذا ·· عن اعتقاد جازم ·· فقد كنت أحسن النية بالمرأة ·· حتى بدأت أحس ذات يوم بأنها جادة في عبثها ·· وأن هناك علاقة بينها وبين رب الأسرة التى تقطن أعلانا وهو طبيب ضابط·

وفي ذات يوم اقبل زوجي على البيت وقد تجهم وجهه وبدا كأن في صدره ثورة تعتمل وغضبا يستعر ·· وسألته عما به فأجاب بلا شيء ·· ولكنى رأيت أنه يجاهد في كبت غضبه ·· فألححت عليه·

واخيرا وضح لي الأمر قائلا انه قد تأكد بنفسه أن زوجة قريبه امرأة سوء ·· وأنه لا يستطيع الصبر على عبثها ولا يطيق أن يدعها تجعل من الدار ماخورا وتلوث شرف زوجها الغبي الحمار ·

ولم يكن ميعاد حضور زوجها قد حل ، فقد كانت الساعة السابعة مساء ولم يكن يحضر قبل العاشرة ·· ووجد زوجي أن خير فرصة

ينتهزها لتوجيه نصيحته للمرأة العابثة فى هذه الساعة ·· فذهب يطرق باب الشقة ·

وكان اقصى ما اخشاه أن يتهور زوجى فى غضبه ·· فانه رغم هدوئه وحلمه وسعة صدره ·· كان اذا غضب نسى نفسه ، وخرج عن وعيه ·

وبدأت أندم على تركه يزج بنفسه فيما لا يمكن أن يعود عليه الا بالشر ·· ما لنا ولغيرنا !

ثم هناك أمر آخر ·· أليس من المحتمل أن يعود زوجها فجأة ·· فيندفع زوجى فى غضبه ويقص عليه جلية الأمر ·

ومن يدرى ربما ثار زوجها فقتلها وقتله وقتل نفسه ·

واخذت الوساوس تصطخب فى رأسى ·

وتملكنى على زوجى قلق شديد ·· وخيل الى أن غيبته قد طالت ، ووجدتنى مكروبة لاهثة لأطمئن عليه ·

وطرقت الباب طرقة خفيفة فلم يجب أحد ·· ووجدت أن الباب غير مغلق بالمزلاج ، فدفعته دفعة خفيفة فانفتح ، ودخلت الى الصالة وأنا فى غمرة من القلق والاضطراب ·

ووقفت فى منتصف الصالة الخالية ·· أدير البصر يمينا ويسارا دون أن أجد أحدا ·· وزادت فى نفسى الوساوس ، ووجدتنى أندفع بلا ارادة الى اقرب حجرة الى فافتح بابها وأدلف منه ·

ولا أظننى أستطيع قط أن أصف لك مبلغ دهشى وارتياعى وأنا اقف فى الحجرة احملق فى المنظر الذى رأيت فيها

لقد رأيت آخر ما يمكن أن يخطر على بالى ·

رأيت الاثنين وقد ضمهما فراش واحد ·

من يصدق هذا ·· ؟

زوجى الأمين الطيب الوفى ، الذى كان يشمئز من المرأة ، والذى

كنت أخشى عليه من أن يقتلها من فرط كرهه لها ·· ينهار امامها بمثل هذه السرعة ؟

أهكذا تتطاير المبادىء والاخلاص ·· فى غمضة عين ·· أمام جسد عار وجيفة نتنة ·· ؟

أهكذا الرجال يا سيدى كلهم كالكلاب ·· مهما حسن نوعهم وكرم أصلهم ·· لا يتورعون عن أن يدسوا أنوفهم فى أقرب كوم للقمامة يلوح لهم ·

انى أكتب اليك من بيت أبى ، فانى لم أستطع أن أبقى لحظة واحدة مع الرجل الخائن الغادر ·

انى أحس بأن أملى فى الحيـــاة قد ذرته الرياح ، وأشعر أن كرامتى قد خدشت ، بل سحقت ·

وانى مصممة على طلب الطلاق ·· مصممة على الا أعود اليه قط ·

ولكن يطوف بذهنى بين آونة وأخرى ذلك السـؤال الذى سألتك اياه فى بادىء الأمر :

أكل الرجال كذلك ؟ من نفس المعدن الخبيث والطينة القذرة ·· ؟

أجب بصراحة ·

أهناك أمل ـ فيما لو انفصلت عن زوجى ـ أن أصادف بين الرجال من هو أطيب عنصرا ؟ أهناك رجاء فى مستقبل افضل ·· أم انكم كلكم كذلك ·

أجبنى يا سيدى ·· أكلكم كذلك ؟

المخلصة

(····)

★ ★ ★

سيدتى العزيزة ...

أجل . كلنا كذلك .

كلنا تماما كما وصفت .. نفس المعدن الخبيث والطينة القذرة .

ماذا اقول لك .. وقد رأيت أن زوجك المثالى ، الذى قلت عنه كل ما قلت .. قد تهاوى عند أول تجربة ألقى به فيها ؟

انا لا أعرف بالضبط ماذا فعلت به المرأة .. ولا ما نوعها . وان كنت استطيع أن أخمن ، وأستطيع بناء على التخمين أن أجزم ، بأنى أنا أو غيرى ، ما كنا نستطيع المقاومة .. لو كنا مكان زوجك ، وان كان ذلك لا يمنع من أن نكون أشد من زوجك حذرا .. فلا نترك الباب مثلا غير مغلق بالمزلاج .

يجب أن تعلمى أن أمثال هذه المرأة التى أوقعت زوجك كما أوقعت غيره .. هى أشبه بالسبيل الذى يشرب منه كل عابر سبيل .. أو بالطوبة الملقاة على قارعة الطريق يقرعها كل سائر بقدمه .. فلا يكاد يتجاوزها حتى ينساها ، اللهم الا اذا كان غاوى طوب .

عودى الى زوجك يا سيدتى . ان كل ما يجب عليك عمله هو أن تتركى الدار الموبوءة وتبتعدى بزوجك عن منطقة الخطر .

المخلص

(....)

سيدى العزيز ..

لا أمل هناك فى عودة ، ولا رجاء فى صلح .. لقد اتضح لى أن هذا الزوج المثالى .. كان أول الناس صلة بالفاجرة .. وأن غضبه لم يكن غيرة على الفضيلة والشرف ، بل غيرة على المرأة من بقية الرفقاء .

يا للرجال الخادعين الخونة ..

المخلصة

(....)

امـــرأة طـيـبة

لقيتها في بيت من بيوت الهـوى .. دفعني اليه صـاحب للترفيه والتسـلية .. ووجدتهـا صامتة لا تتحدث . ولكني أحسست انها مخلوقة طيبة .

كنت في حيرة من امرهما .. وكنت أسائل نفسي وأسائل الناس .. كيف يستطيعان التفـاهم ؟ وأية سخرية من سخريات القدر ألقت بأحدهما في طريق الآخر ، وأرغمتهما على رفقـة العمر ، وشركة الحياة ؟!

وأعجب ما في الأمر .. ذلك الحب العنيف بينهما .. فلقد كنت أفهم أن زواجهما ـ برغم ما فيه من تناقض يبعث على الدهشة ـ قد يكون وليد منفعة أو جاء خبطة عشواء من صنع الظروف الخرقاء أو فرضته أسباب خفية قاهرة ، فلم يستطيعا سوى الاذعان والامتثال .. أجل .. كنت أفهم أن زواجهما العجيب .. ليس سوى وضع شـاذ لغرض من الأغراض ، والحياة مليئة بالأوضاع الشـاذة المقلوبة . كل هذا كان يمكن أن يبرر زواجهما ، أما أن يكون بينهما حب ، وحب عميق قوى متين ، فذلك ما لم أجد له في ذهني ما يبرره .

وكيف يقوم حب ·· بين أعمى وبكماء ·· حب استطاع أن يدفع كلا منهما رغم ما به الى المغامرة بزواج صاحبه ؟

لو انهما تزوجا وهما صحيحان ، ثم أصيب كل منهما بما أصيب به ·· لما كان هناك ما يبعث على الدهشة ·· بل لما وجدت فى حبهما القوى سوى صلة طبيعية زادتها المصائب والنوازل توثقا وارتباطا ·

ولكنهما تحابا واقدما على الزواج وبكل منهما ما به · كيف أحب كل منهما الآخر ؟ كيف استطاعا التفاهم ؟ ·· وكيف تبادلا العواطف والمشاعر ؟

لو كان كلاهما ابكم ·· لقلنا انهما تفاهما بالعيون ، ولو تعطلت ــ برغمهما ــ لغة الكلام ، لخاطبت « عينيه فى لغة الهوى عيناها » ·

ولو كان كلاهما أعمى ، لقلنا جرى بينهما الحديث فعشق كلاهما الآخر بسمعه وأذنه ، « والأذن تعشق قبل العين أحيانا » ·

أما أن يجمعا بين العمى والبكم ويتحابا ·· فتلك ما حيرنى ، وملأنى عجبا ! ·

ولقد بقيت أسائل نفسى كيف يعيشان ؟ وكيف يتفاهمان ؟ حتى جمعتنى بهما أواصر صداقة ، وزادت بيننا الصلة حتى استطعت أن أعرف الكثير عن حياتهما الخاصة ·· فعلمت كيف يتفاهمان ·

شىء عجيب ! لقد كانا يتفاهمان كأصح صحيحين ، وكأن العاهة التى بكل منهما لا أثر لها ·

فهل كان التفاهم صنيع الحب ؟ أم طول العشرة والتعود ؟ !

كنت أظن قبل أن أعرفهما أن الأبكم ، دائما لا يسمع ، أما هى فقد كانت تبدو لى كأنها تسمع ·· أو أنها كانت تلتقط الحديث وتفهمه من مجرد حركة الشفاه ·· فكان هو يتحدث ، وهى تفهم كل ما يقول ، وتلبى كل ما يطلب ، بلا لبس ولا خطأ ·

وكان هو شخصا عجيبا ·· يبدو لى أن حاسة السمع أو اللمس

كانت لديه خارقة للعادة ، ومن يدرى ربما كانت لديه حاسة سادسة ٠٠ يفهم منها ما تريد ويقرأ بها خبايا رأسها وصدرها دون أن تفصح عنه ٠

على أية حال ٠٠ سواء أكان هذا أم ذاك ، أو كان شيئا آخر مما لست أدرى ٠ لقد كان الشيء الذى أستطيع أن أجزم به ٠٠ هو أنى ما رأيت التفاهم بينهما يتعثر قط ٠٠ بل كانا يتفاهمان كانسانين سليمين ٠

ولقد هدأت حيرتى بعض الشيء بطول معرفتى لهما ٠٠ ولكن حب الاستطلاع لم يخمـد فى نفسى ٠٠ بل بقيت أتلهف الى معرفة قصتهما ٠٠ كيف التقيا ؟ وكيف تحابا ؟ ان فى حبهما ـ بلا أدنى شك ـ أمرا يستحق أن يعرف !

وسنحت الفرصة ذات ليلة ، وقد خلوت به فى شرفة الدار ٠٠ نسمر بحديث هادىء ، وبدأت أحدثه عن نفسى حديثا رقيقا مستفيضا استطعت به ، وبسكون الليل ونسيمه ورقته ٠٠ أن أستدرجه الى الحديث هو الآخر ، واذا به يمد ساقيه فى استرخاء ويدفع رأسه الى الوراء كأنه ينظر الى السماء ويقول :

ـ أحببت مرتين ٠٠ حبا قديما وحبا جديدا ، أما القديم فقـد ثوى ، ولم تبق منه سوى ذكريات باهتة ٠٠ تبدو كأنها بقايا سحب فى الأفق البعيد ٠٠ لقد فقدت صاحبته ، أو لكيلا نظلمها فقدت أنا منها ، وافترقنا على عهد وميثاق ، وذهبت الى الميدان بعد أن وعد كل منا الآخر أن يكون لصاحبه ، ولكن الظروف أضـاعت العهد ومزقت الميثاق ، فلم نلتق بعد ذلك أبدا ٠

لم أحاول أن ألقاها ٠٠ فقد كنت أعلم أنى بالنسبة لها لن أكون سوى انسان مفقود ميت ٠٠ هالك ، وكنت أفضل أن أكون كذلك ٠٠ من أن أبدو لها بهذا الشكل البشع ٠٠ ضريرا مشوها !

كنت أرى ان أبقى في ذاكرتها ذكرى جميلة بدلا من ان اكون في حاضرها واقعا مرا ثقيلا ٠٠ كنت غير واثق من نفسي ، وكنت اكره أن اكون فرضا بغيضا عليها ٠

ثم انه لا حق لي عليها ــ وهي ناضرة كالزهرة ، وهبتني شذاها وانا انسان سليم ــ في أن اتعلق بها فاشدها لتقضي بقية عمرها مع ضرير خابي العينين مظلم الحياة ٠

كان حبي لها قبل أن أصاب يشدني اليها ٠٠ فلما أصبت أحسست أن حبي يدفعني عنها ٠

وهكذا عدت من ميدان القتال وكأني لم اعد ٠٠ لقد سبق أن أعلنوا أني مفقود ، ولا أظن احدا قد اهتم لفقدي اللهم الا هي ، فقد نشأت يتيم الأبوين ، وقضيت حياتي وحيدا ، منطويا على نفسي ٠٠ لا أحب ولا أحب ، حتى لقيتها ، فأحسست نحوها بما يحسه ضال في بيداء مقفرة اقبل على واحة منحته الظل والثمر والماء ، فوقته من هجير ، وأطعمته من جوع ، وسقته من ظمأ ٠

عدت من القتال ضريرا ، او على الأصح ميتا مفقودا لأنطوى على نفسي مرة اخرى وأعود لأضرب في بيداء الحياة وأفقد الظل والماء والثمر ، وافقد معهما البصر والأمل ٠

ومرت بي الأيام لتزيدني يأسا على يأس ، ومللت الحياة وهممت ــ لولا بقية ايمان ــ بالتخلص منها ٠٠ حتى كان ذات يوم ، أحسست أني بعثت من العدم ٠

اجل مرة أخرى ٠٠ أحسست اني وهبت الملجأ بعد طول ضلال ، ولقيت المقر بعد طول سعي وكد ٠

لقد أحببت ثانية ؟ !!

لست أدري لم أحببتها ، ألتوافق بين نفسينا ٠٠ أم لأنها كانت

ذات عاهة وكنت ذا عاهة ، فالف المصاب بين قلبينا ؟ أم لأنها كانت أول من منحني عطفا وحدبا ؟

الواقع أنني كنت على استعداد لأن أحب أية مخلوقة تمنحني قلبها ·· أيستطيع طاوى الصحراء الجرداء ·· أن يرفض قدرا من الماء مهما حقر ، وقدرا من الظل مهما ضؤل ؟

لقيتها فى ظروف عجيبة ·· لو لقيت بها غيرها لما فكرت قط فى أن أتزوجها ·· أما هى ، فما كنت لأتردد فى زواجها حتى ولو لقيتها فى أسوأ مما لقيتها فيه ·

لقيتها فى بيت من بيوت الهوى ·· دفعنى اليه صاحب للترفيه والتسلية ، ووجدتها صامتة لا تتحدث ، ولكنى احسست انها مخلوقة رقيقة جميلة طيبة ، وسألت عنها صاحبة البيت فانبأتنى انها فتاة بكماء ·

ونشأ بيننا ود سريع ، وأحسست منها عطفا كثيرا ، ووجدت المشاعر تتدفق من قلبى نحوها ، وفى نهاية السهرة اوصلتنى الى الدار ·

وفى اليوم التالى اقبلت تزورنى ، وتكررت الزيارة يوما بعد يوم ، ولم تمض بضعة أيام حتى انتهى الأمر بيننا بالزواج ·

لقد تمت المسألة فى غاية السرعة ·· فلم يمض بين أول لقاء وبين الزواج اكثر من أسبوع ·

قد يبدو الأمر تهورا منى واندفاعا ·· أن أتزوج امرأة من بنات الهوى لا أعرف عنها كثيرا ولا قليلا ، ولكنى أؤكد لك أننى لم أندم قط على فعلتى هذه ، فلقد أحسست منذ لقيتها أن شيئا خفيا يشدنى اليها ، واستطعت أن أجزم لنفسى انها ــ على كل ما بها ــ خير من ألف امرأة شريفة ·

لست أدرى ما رأيك أنت · انى أحس أنها عوضتنى عن حياتى

الماضية • ويبدو أنني لو تزوجت صاحبتي الأولى وأنا سليم البصر ، لما كنت أسعد حالا مما أنا عليه الآن ، ففي كثير من الأحيان يبدو لي أنني لم افقد شيئا ، وأني ألمس صاحبتي الأولى فيها •• وأحس بها بين ذراعي ، وأني أبصرها كما كنت أبصرها فيما مضى •• حتى ليخيل الي أني أحب الاثنتين في واحدة ، وأن فقدي البصر جعلني أتوهم صاحبتي الأولى فيها •• أترى النســاء يتشابهن جميعــا •• اذا ما تحسسناهن بأيدينا ؟

★ ★ ★

وصمت الرجل ، ولم أدر بأي شيء أجيبه ، ولم أشك من حديثه في أن كل ما به من حنين مبعثه حبه الأول ، الذي خشي عليه أن يتحطم اذا ما التقى بصاحبته ، وأنه فضـــل طول الحــرمان على مرارة الهزيمة ، وحرص على أن يحتفظ في ذهنه بأوهامه الجميــلة •• ليعيش عليها •

فلمــا التقى بأول امرأة •• أبدت له عطفا ، بعــد أن أضــناه الحرمان ، وهبها ما اختزنه من الحنين ، وأقبل عليها ، فأحب فيهــا صاحبته ، ولم اشك في أن الوهم قد رسمها له صورة طبق الأصل منها •

ماذا يضيره •• ما دام ضريرا ، لا يبصر شكلها الحقيقي ولا يميز الفارق بينها وبين صاحبته الأولى ؟

★ ★ ★

ونهضت من مقعدي فشددت على يده مودعا وهممت بالخروج عندما وجدت الزوجة مقبلة من الحجرة المجاورة ، وبدا لي من نظرتها

ان في راسها أشياء كثيرة ، وسرت واياها مجتازين الحجرة الى الصالة ، الى الردهة ، لتوصلني الى الباب •

وفي الردهة وجدتها تتوقف ثم ترفع بصرها الى وتهمس قائلة فجاة :

ـ هل سمعت منه القصة ؟

وتملكني الذهول ، فقد كنت على استعداد لأى شيء الا ان أسمع البكماء تتحدث •

وهمست متسائلا في دهش شديد :

ـ اتتكلمين ؟

وهزت راسها مشيرة « أجل » ثم أردفت قائلة :

ـ يبدو لي أن من الانصاف أن تسمع القصة من الناحية الاخرى •انى وصاحبته الأولى مخلوقة واحدة •• انى هى •• التقيت به أول مرة ، وأنا على وشك الانزلاق الى الهاوية فأحببته كما لم أحب من قبل ، وأحسست أنه قد أنقذني من التردى ، واتفقنا ـ كما قال لك ـ على أن يكون كل منا لصاحبه •

ثم سافر الى الميدان ، وأخذت أنتظر ، ولما علمت من صحبه أنه فقد ، تملكني اليأس وأحسست بالانهيار ، ووجدتني أندفع مرة أخرى الى الهاوية •• دون أن أجد ما ينقذنى ، ومرت بى الأيام وأنا أتجر في الهوى •• حتى كان ذات يوم التقيت به •• فكأنى رأيت ميتا بعث ، وأحسست بالحنين اليه . ولكني كرهت أن أحطم في ذهنه صورتي الحلوة الشريفة ، وخشيت ـ كما خشى هو من قبل ـ أن أبدو له بهذه الصورة البشعة•• امراة مدنسة ، ولم أتكلم ، حتى لايعرفني، ورجوت صاحبة البيت أن تنبئه انى بكماء ، وحاولت تجنبه والابتعاد عنه ، ولكنه اقبل على في لهفة وشوق كأنما قد احس بى . ولم

استطع الا أن أبادله اللبقة على انني مخلوقة اخرى جـديدة غير صاحبته الأولى ، ومنذ ذلك اليوم ٠٠ لم ألبس بينت شفة ٠

وعرض على الزواج كما أنا ٠٠ بكماء من بنات الهوى ٠٠ ولم أتردد فى القبول ٠٠ وعشت معـه بشخصيتى الجديدة ، فكسبت الحاضر ولم أهدم الماضى ٠

انى أمامه واقع سعيد هنىء ، وفى ذهنه ذكرى جميلة ممتعة ٠٠

امـــرأة آثـمة

**ومرة أخرى تدخل القـدر ليقذف الينـا بجديد ..
ولكن قذيفته هـذه المرة كانت بردا وسلاما وكان فيهـا
الشـفاء لنفس مضـناة معـذبة ، والرجاء لقلب يائس
موجع ، والماء لروح صادية مهجرة .**

يا قيس ليلى بليلى قل لذا الوله
هل آخر الحب مز مثـل أوله ؟

أتيت ربع الهوى عن غير معرفة
والله يعـــلم ما ألقى بمســتنزله

ما كان ذلك طوعا انمـــا قدمى
زلت بقلبى فقـــادته لمقتـــله

اقسم بليلى .. ليلاى .. وليلاكم .. وليلى هذه القصة ، ان آخر الحب أشد من أوله مرارة والذع طعما .

وما أحق الشاعر الشاكى بالرثاء وقد ذاق المر من اوله وأتى ربع الهوى ، وخاض بحر الصبابة ، خوض جاهل مكره مساق عن

غير معرفة وبلا ارادة ولا رغبة ، ولكن قدمه هوت به وزلت بقلبه ، فأودت به الى حتفه وقادته لمقتله ٠

ما كان ذلك طوعا !٠

ومتى كان الحب طوعا ؟ ومتى كان عن معرفة وتقدير ؟

ان أمامى رسالة من بغداد ٠٠ رسالة ليلى المريضة المعذبة ٠٠ قرأتها مثنى وثلاث ورباع ، وفى كل مرة أصل لآخرها واتوقف أمام لوعة صاحبتها وحيرتها وسؤالها اياى ان أصف لها دواء وأجد لها حلا ٠

ان الدواء مر ٠٠ فعندما تزج بنا الأقدار فى مثل هذه التجارب يتعذر علينا الخلاص الا بطريقين أحلاهما مر ٠٠ وأسهلهما شائك وعر ٠٠ الأول على حساب تحطيم قلوبنا وتمزيق مشاعرنا ٠٠ والثانى على حساب تحطيم التقاليد وتمزيق العرف والأوضاع ٠٠ الأول نكبح فيه جماح أنفسنا ونعلمها الصبر على الشقاء والجلد على الحرمان ٠٠ والثانى ننطلق منه على هوانا ٠٠ تلهب ظهورنا سياط الألسنة ، وتدمى أقدامنا أشواك اللوم والتأنيب ٠٠ وكلا الطريقين شاق عسير ٠٠ والنهاية ٠٠ الله بها أعلم ٠

هذه الرسالة تحتوى على تجربة شاقة عسيرة ٠٠ لست أشك فى أن الأقدار لا تبخل بها على البشر ٠٠ بل هى تبسط بها يدها كل البسط فى كل زمان ومكان ٠

ولست أريد ان ألقى لوما على صاحبة الرسالة ٠٠ أو أحملها ذنبا ، فأنا أكره أن أعطى طالبة العلاج والمشورة بدل الدواء لوما ، وأكره أن أحملها نتيجة ما انساقت اليه ٠ فهذه المآزق والأزمات تدفعنا الأقدار اليها دفعا ٠٠ فنجد خيوطها قد أحاطت بنا وأوثقتنا فلا نملك حراكا ولا فكاكا ٠

ومع ذلك ، ومع رغبتى الشديدة فى تجنب اللوم ٠٠ فانى لا أملك

ان امنع الحيرة والدهش اللذين يتملكاني كلما توقفت أمام بعض الحوادث والمواقف في هذه الرسالة ·

ولا أملك أن امنع نفسي من التساؤل عن نظام الحياة في بيوت العراق ، وعن تقاليد العائلات العراقية المحافظة ·

هل من الطبيعي أن يسمح لغريب بالحياة مع أهل الدار ؟ وهل من الطبيعي أن يصبح غريب ذو حق في عائلة من زوج وزوجة وأم وأب ؟ وأن تتضخم حقوقه الى درجة أن اي اكلة تعجبه تطبخ له وأنه اذا تأخر عن الطعام لا يجسر أحد أن يتناول الطعام قبل أن يتصدر المائدة ؟

هل هذا شيء طبيعي في عائلة عراقية محافظة ؟

انا لا الوم ولا أسخر ·· بل اني اتساءل مجرد تساؤل ، ان الرسالة قد تضمنت هذا الكلام بمنتهى البساطة كانه لا عجب فيه ·· ومع ذلك فقد عجبت له ·· فاني أعرف العراقيين كالمصريين ·· وأن تقاليد العائلة العراقية المحافظة هي نفسها تقاليد العائلة المصرية المحافظة ·

وهل من الطبيعي ايضا أن ·· ؟

ولكن ما لي ولكل هذا التساؤل ؟ اليس من الافضل أن اعرض الرسالة كما هي ·· وليحكم عليها القراء بما يشاءون ·· ؟

أظن هذا خير وأفضل ·

اليكم الرسالة كما هي ·· بلا تنميق ولا تزويق :

« أخي ··

·· سأحدث أخي عن سر أدمى فؤادي وجعلني أذبل وأنا بعد في ربيع العمر وناضر الحياة ·

أكتب اليك كتابة شابة تعسة يائسة تقطعت بها خيوط الأمل وسدت في وجهها سبل الرجاء ·· وبلغ بها اليأس مبلغا جعلها

تتوهم نجاتها في خيط واه رقيق ! وتتلمس وسط الظلماء بارقة نائية تلمع كاللآلىء ٠

أجل يا أخي ٠٠ لقد بلغ مني اليأس مبلغا دفعني الى أن ألجأ اليك وأنا في بغداد وأنت في القاهرة ، فأكتب اليك شارحة قضيتي ، عارضة مأساتي ، سائلة اياك أن تجد لي منهـا مخرجا وتسعفني بدواء بعد أن عز المخرج واستعصى الدواء ٠

أنا أسالك الدواء وانت في القاهرة وأنا في بغداد ٠

أسألك راجية آملة ٠

لا تتهمني بالجنون ، فأنا ما زلت عاقلة ٠٠ ولولا هـذا الأمل والرجاء الذي حفظ لي بقية من عقل ، لأودى بي اليـأس الى هوة من الجنون ٠

انني آمل فيك ، على البعد ، لأني لا بد أن آمل في شيء ، وما دام الأمل قد ضاع في كل ما حولي ، فلم لا آمل في شيء بعيد ؟ ٠ على الأقل حتى لا تستعصي على الحياة ٠

أنا فتاة (هكذا كتبت صاحبة الرسالة ٠٠ وأعتقد أن الصحيح ٠٠ سيدة) ولدت في وسط محافظ على التقاليد ، ومن عائلة متوسطة تتكون من أم وأب وأخ ٠

ولست أريد أن أضيع وقتك بتفاصيل تافهة عن العائلة ، ولكني ألخص العلاقة بيننا بأن كل فرد في العائلة يحب الآخر ويحترمه ٠

وبدأت اندماجي في الحياة العراقية بالالتحاق باحدى المدارس الابتدائية ٠٠ وكنت اشعر منذ حداثتي برغبة في الدراسة وميل الى تحصيل العلم ، ومكنتني هذه الرغبة وهذا الميل من التفوق على لداتي من الطالبات ، وكانت أقصى أمنية لي أن أتمم دراستي حتى النهاية ، ولكن القضاء الجائر لم يشأ أن أنال أمنيتي فحالت ظروف قاسية بين الدراسة وبيني وانتزعتني من الطريق في أول مراحله ٠

ولم يزعزع ذلك الجور من القضاء والشدة من الظروف ثقتى بالحياة ، وداومت على السير فيها راضية قانعة ، حتى قذف القدر الينا بما زلزل زلزالها وأخرج أثقالها ، وغدت علينا الرياح بغمامة معتمة مظلمة خيمت عليهـا ٠٠ أو على الاصح ٠٠ على حيـاتى أنا بالذات ٠

لم تكن الغمامة والزلزال سوى رجل جمعته بأخى دواعى العمل ، ووثقت الدواعى الصلة بينه وبين العائلة ٠٠ وزادت الأيام هـذه الصلة وثوقا ، فقد كان بحكم العمل المشترك بينه وبين أخى دائم التردد علينا يكاد يقضى معظم يومه فى بيتنا ٠

وقد بدأ هبوبه علينا وأنا لم أزل بعد طفلة غريرة ٠٠ لا هم لها سوى استذكار دروسها وعمـل واجباتها الدراسية والانهماك فى تدبير شئون الدار ، وأخذ مركزه يتوطد بيننا ومقامه يستقر ، وزاد تعلق الأسرة به حتى انتهى الأمر به الى أن يقطن معنا ٠

ولا أكذبك القول اذا قلت لك ان الرجل كان يتمتع بكل احترام وتبجيل ، وكان الكل ينظرون اليه نظرة تقدير ٠٠ عداى ٠

أجل ٠٠ أنا وحدى الصـغيرة الضئيلة التافهة ٠٠ التى كنت أكرهه وأحتقره ٠٠ فما كان يقع من نفسى الا موقع أفاق أمى فرضته علينا الأقدار فرضا ، وعبثا حاولت أن أعود نفسى حتى على مجرد قبوله ، فقد كانت تعافه وتزدريه وهى الطموحة الوثابة ، وهو رجل الشارع الفظ الغليظ المحروم من كل ما وهبه الله لانسان محترم ٠٠ لا ثقافة ولا خلق ولا ذوق ٠٠ ولا شىء أبدا ٠

ومع ذلك فلم أك أستطيع الا الرضاء ٠٠ فما كنت أملك فى الدار سلطة طرده واقصائه ، ووجدتنى أصبر مضطرة على قربه والعيش معه ٠٠ حتى وقعت الطامة الكبرى ، وطلب يدى ٠

طلب يدى لكي أكونَ زوجته ولكي أنام واياه تحت سقف واحد وفي فراش واحد ٠

هذا الحيوان الجاف ، من دون خلق الله أجمعين ، يطلبني انا بالذات من دون نساء العالم لكي اشاطره حياته ولكي اشـد معه بوثاق يربطنا معا الى الأبد ! ٠

ولم يجد من الأهل رفضا ولا صدا ، فقد كانوا كلهم في حاجة اليه بعد أن قيدهم بأغلال هداياه وجمائله ، وبعد أن اغمضوا أعينهم عن خبث نفسه وسوء طويته فلم يكتشفوه على حقيقته رغم انقضاء هذه المدة الطويلة على سكناه معهم ٠

وفاتحوني في الأمر فهببت ثائرة غضبى مدافعة عن كياني وعن مستقبلي وعن حياتي الطويلة الباقية ٠٠ وتشبثت بحقي في الحياة وفي اختيار الزوج تشبث المستميت ٠٠ وقلت انى ما زلت صغيرة وانى ارغب في الاستمرار في الدراسة ٠٠ وحاولت التذرع بجميع وسائل الرفض ، ولكن رفضي لم يجد معهم نفعا ٠٠ وساقوني الى مصيرى سوق النعاج الى قصابها والمذنب الى جلاده ٠

وفي ذات يوم أسود اغبر مثقل بالكروب والخطوب ، نفذ في حكم الزواج ٠

انتهى الأمر ، وحانت الآخرة ، وسقت الى مصيرى المحتوم ٠٠ الى بيت الزوجية الجديد ، ولم يكن امامى مفر منه فتوسلت اليهم — ما داموا قد قضوا على هذا القضاء — أن يترفقوا بي ويستعملوا الرأفة والا يتركوني وحدى ٠٠ بل يؤنسوا وحشتي ويقطنوا معي والا يفارقوني ويخلفوني وحدى معه ٠

ومرت بي الأيام وانا أزداد تعاسة وشقاء ، وجسدي يزداد نحولا وذبولا حتى وهن مني العظم وبت شبحا لا يكاد يعرفني أقرب الناس الى ٠٠ وهو ٠٠ هو ٠٠ يرتع في بحبوحة من الجهل والغباء والفظاظة

والغلظة .. لا تكاد تسمع من شفتيه سوى سيل دائم من الألفاظ النابية الجارحة .

ورزقت من هذا الوحش بطفلة آية في الجمال ، ولكنها شبت على غرار أبيها .. فظاظة خلق ، وغلظة طبع ، حتى بت أكرهها أشد الكره .. ونمت وترعرعت وهي أبعد ما تكون عن عطفي وحناني .

لقد كنت أشعر دائما أنها ابنته وحده .. وأنه ليس لي فيها ناقة ولا جمل ، فبغضتها ، وهي ابنتي ، لمجرد احساسي بأنه يشاركني فيها تلك البنوة .

أجل .. لقد تغلب كرهي لابنته على حبي لابنتي .

وهكذا سارت حياتي معه على وتيرة واحدة ، فما اعتبرته يوما زوجا لي .. وما بادلته حبا ولا ميلا ، ولا حتى احساسا بوجود .

وفي صيف ١٩٤٧ افلحت ، بعد الحاح شديد ، في اقناعه بالسفر الى مصر لتمضية المصيف في الاسكندرية .. ولأتداوى من علة لازمتني هي « مرض الأعصاب » فقد كانت أعصابي متوترة مرهقة وكنت أثور لأتفه سبب .

ومرة أخرى تدخل القدر ليقذف الينا بجديد .. ولكن قذيفته هذه المرة كانت بردا وسلاما ، وكان فيها الشفاء لنفس مضناة معذبة ، والرجاء لقلب يائس موجع .. والماء لروح صادية .. مهجرة .

لقيته فعرفت فيه — من أول نظرة — بلا أي مبالغة ولا ادعاء ، حبيب الروح وأنس الحياة ، ولم أجرؤ أن أعترف حتى لنفسي .. بهذا الأمر ، بل زعمت لنفسي أنني ارتحت اليه مجرد ارتياح ، فلقد كان مخلوقا متقفا رزينا لطيفا ، هادىء الطبع ، باسم الثغر ، حلو الحديث .

كان شابا وسيما ذا مركز محترم وأصل طيب ، وثقافة عالية ، وقد تعددت زيارته لنا بعد التعارف وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين

أفراد العائلة جميعا .. حتى أضحى على مر الأيام كواحد منها .. وأصبح الصديق الحميم للزوج والأخ والوالد والوالدة .

وبدأت أحس بالتطور الجديد فى نفسى الثائرة ومشاعرى القلقة وأعصابى المتعبة ، فهدأت الثورة ، وضاع القلق ، وتبدل التعب راحة .

أى والله يا أختى ، ما عدت أحس بحزن ولا قلق ، ولا ارهاق بل أصبحت أحب الحياة وما فى الحياة ، ولم أعد أضيق بكل شىء ذرعا ، وأحس من كل جلسة مللا .. بل أخذت أشعر بأن هناك ما ملأ الفراغ وآنس الوحشة ، وكنت أجلس وإياه لنقرأ فى كتب الشعر والأدب التى جلبها الى ونتناقش فيها ونتبادل الرأى ، وكنت أحس من ذلك بلذة أى لذة ، ومتعة أى متعة .

لقد بدأت أتذوق الحياة ، وأعرف ما معنى أن يعيش الانسان مع صاحب مثقف لطيف رقيق .

وفجأة انقطع .. منعه الزوج عن زيارتنا . وتركنى أشبه بمجنونة حائرة .. وظمأى مسغبة .

وأقول الحق أنى لم أستطع المقاومة ولا النفاق ولا المداراة ، فارتميت طريحة الفراش ، وكلفت والدى بالتنقيب عنه ، وخرج أبى ولم يعد الى الدار الا به .

واعتذر عن غيابه وأنبأنى انه لم يعرف بنبأ مرضى الا من أبى وأنه حضر فى التو عندما علم .

واستمر يعودنى حتى كتب لى الشفاء وعادت الى بمسودته حياتى ، وأشرق الكون بعد طول ظلمة وعبوس .

ولم أعد منذ ذاك الوقت أطيق البعد عنه لحظة واحدة ، وما عدت أكتم حبى بين جوانحى بل أطلقته متحررا صريحا من الحنايا .. وما عدت أخشى شيئا .. فاذا تأخر موعد زيارته استحثثت مجيئه

بالتليفون ، وبت اغار عليه من لمس الهواء ، وأعاتبه اذا قصر يوما في الزيارة .

ولست أريدك أن تفهم من قولي أطلقت حبي متحررا صريحا من الحنايا اني قلت له اني أحبه .

لا .. لا .. اني ما قلتها قط ، وما قالها .

ما قلتها وما قالها .. ولكن كل فعلنا كان يوحي بها .. وينم عليها .

مرت على علاقتنا هذه ثلاث سنوات ، والحب بيننا متأجج والهوى مستعر .. لا تنطفيء له نار ولا يخبو له أوار ، حتى بات لكل منا حقوق على صاحبه أقوى من حقـــوق الأزواج والآباء والابناء ، وأصبح هو كل شيء في العائلة ، فاي اكلة تعجبه تطهى له ، وان تأخر يوما عن الطعام لم يجس انسان على قربه حتى يتصدر المائدة .. فأشعر بالسعادة تغمر جوانحي وأنا بجانبه يروي لي النكات الحلوة والأحاديث الطريفة المسلية .

وفي ذات يوم ألقى لي بأول رسالة يكتبها الي ويبثني فيها حبه ولواعجه .. القاها الي بطريقة مترددة خائفة وجلة مستترة .. فقد دسها لي في كتاب دون أن يعنونها باسمي كأنما هي مرسلة الى مجهول ، وكانت رسالة حارة ملتهبة تذوب شوقا وتزفر جوى .. ولا اكتمك القول أني ما ســـعدت في حياتي ســعادتي في لحظة قراءتها ، أو على الأصح التهامها .

وطالت غيبته فترة بعد أن دس لي رسالته الممتعة ، وكنت أذوب شوقا اليه فحادثته بالتليفون وسألته متغابية عما اذا كانت الرسالة الموجودة في الكتاب تخصه ، وعمن يقصد بها .

ورد علي بانها شيء تافه كتبه في فراغه ورجاني الا اعيرها أي اهتمام .

ولم تضايقني مخالطته . فقد كنت واثقة من أنه يعنيني بها ولم أملك سوى أن أقول له ضاحكة :

ـ الله يسامحك .

ومرت الأيام وكل منا يخرج هواه ويكتمه ، ويبوح به ويحبسه .. يبوح به فعلا ويكتمه قولا .. لساننا في صمت وأعيننا وقلوبنا وأرواحنا في صخب وضجيج .

أقوالنا هادئة .. وأفعالنا ثائرة هادرة . كان يكتب لي الشعر الحار على قصاصات من ورق يرفقها بكتبه ، وكان يطلب من الاذاعة أغاني المحبة . فيهيج مني كامن الشوق وزائد الحب .

وطال بنا الهوى الشريف الطاهر المكبوت حتى أخذ يعصف بحياتنا ، فبدأت تصيبه في الصيف الماضي نوبات عصبية ، وأخذ جسده يذبل ، وعوده يجف ، حتى غاب عنا ذات يوم فجأة .. وكنت في الشهر الأخير وعلى وشك الدخول في المستشفى للوضع .

ولم أتصور قط بعده ، فتوسلت اليه أن يحضر قلبي الرجاء ، وأمضيت مدة الولادة وهو ساهر على راحتي لم يفارقني لحظة حتى انتهيت من الوضع وغادرت المستشفى سليمة معافية .

ولم يكد يستقر بنا المقام بعد الوضع حتى وجدته يزورنا فجأة ويعلن أنه قرر نهائيا عدم السكنى في بغداد ، وأنه سينقل محل اقامته بعيدا عنا لأسباب صحية ، وأن الأطباء أشاروا عليه بتبديل الجو نظرا للنحول الذي أصابه .

وبعد سفره بساعات كتب الي رسالة يصارحني فيها لأول مرة بحبه الجارف الفياض ، ويصارحني بأن سبب سفره الحقيقي هو حبه لي ورغبته في البعد حتى لا يكون سببا في مأساة عائلية ، وسألني أن أكتب له باستمرار .

وهكذا رحل بعد ما أودعني قلبه الذي يقطر حبا وألما ولوعة ،

واحسست بالمرارة والحزن ، مرارة الفرقة وحزن القطيعة ، ولكن لم يكن أمامي سوى الصبر والتعلل بالكتابة .

ومرت الأيام وانا اكتب له واحدثه بالتليفون على بعد الشقة

وطال البعد وانا اصبر عليه واتجلد ، حتى ذوى مني ناضر الحياة ، ويبس زاهر العود .

ورقدت على الفراش انا والموت سواء .. لا اتمنى شيئا سوى لقاء بعد طول فرقة .. ووصل بعد طول نأى وبعد .

وكأنما أراد القدر أن يمعن في التنكيل والتعذيب ، ويبعد عني كل أمل في لقاء أو رجاء في وصل .

فاذا بي .. انا التي أنتظر منه عودته من غيابه الطويل ، أسمع ان الأهل قد قرروا السفر الى خارج العراق .

ولم أطق على قرارهم صبرا ، فارسلت اليه أستدعيه ، وأعلن أن صبري قد نفد .

وحضر الي في النهاية .. وصارح كل منا صاحبه بحقيقة ما في نفسه وسألته أن يضع للمسألة حدا .

وانبأني بأنه على استعداد لأن يفعل من اجلي كل شيء وأن يفتديني بروحه .. ولكنه سألني ان أتروى وأدرس الأمور بعين الحكمة والعقل .

أي عقل يا أخي وأي حكمة ! وهل ترك لي الهوى حكمة وأبقى لي عقلا ! ؟

انا مجنونة .. تائهة .. حيرى .

أما من معين ؟ أما من منجد ؟

أغثني يا أخي بنصح منك !

فقط لا تنس شيئا واحدا وهو اني أحبه .. أحبه .. أحبه .. وأن الحياة بغيره .. مهما كان فيها .. اهون منها الموت .

(المخلصة : ليلى)

ماذا أقول لها بعد كل هذا ؟ •

وماذا يستطيع أن يقول لها أى قارىء منكم ؟ •

لقد قلت انه عندما تزج بنا الأقدار فى مثل هذه الأزمات يتعذر علينا الخلاص الا بأحد طريقين : الأول على حساب تمزيق مشاعرنا واحتمال الحرمان • والثانى على حساب تمزيق التقاليد وتحطيم الأصول •

ولكن يبدو لى أن الطريق الأول فى هذه الحالة متعذر وأنه ليس هناك بد من الخلاص بالطريق الثانى وهو تمزيق التقاليد وتحطيم الأصول •• وفراق الزوج والأبناء وتكملة الحياة مع الحبيب •

ولكن هل هناك فى هذه الحالة بالذات تمزيق أصول وتحطيم تقاليد ؟ لا أظن ••! فانى لا أستطيع أن أمنح صفة الساذجة أثرا لتقاليد أو أصول حتى الابنة ولدتها الأم مكروهة مبغوضة •

لقد قلت رايى وأنا بعيد عن مكان الواقعة ، جاهل بأصول بيئتها وتقاليدها •

هل يستطيع أحد من أهل البلدة أن يفتينا ؟

يا أهل العراق •• افتونا افادكم الله •

★ ★ ★

وأخيرا وصلت الفتوى •• وحلت العقدة •• فتوى من السماء ، وحل من عند الله •• لقد أودى بها الداء •• وانقذتها العلة ، وشيعها القدر بضحكة ساخرة تكاد تقول : ماكم امرأة آثمة !

امـــرأة منـتـقـمـة

يا للقدر العجيب ·· الم تجد هذه المخلوقة من تسلط عليه سياطها سواى ؟·· الم تجد من هؤلاء البشر سوى ولدى وزوجى ؟ !

حدثتنى صاحبة القصة قالت :

كنت فى حالة انهيار تام عندما ذهبت اليها · كنت اما ثكلى ·· لم يمض على وفاة ابنها سوى بضعة ايام ·

كنت أشبه بحطام ·· لم يعد به من الحياة رمق ·· فلقد كانت الصدمة شديدة الوقع على ·· اشد مما يمكن ان يخطر على بال انسان ·

كانت فجيعتى فى ولدى فجيعة مضاعفة ·· وكانت ضربة القدر التى وجهها الى بموته ضربة مزدوجة ·· احداها افقدتنى اياه ·· والأخرى افقدتنى كل ما يمكن ان اتعزى به أو اتعلق فيه ·· افقدتنى كرامتى ·· وثقتى فى الحياة ·

لقد مات منتحرا ·· من أجل امرأة ·· وكان هذا آخر ما يمكن

أن اتصور أن ولدى يقدم عليه ·· لقد كنت أراه دائما شديد الايمان ·· قوى الثقة بنفسه وبالحياة ·· يشع من وجهه الأمل ·· وتفيض قسماته بالمرح والرضا ·

كنت أعرف انه يحب ، وانه كالنحلة يرشف من كل زهرة قطرة ·· ولم أنكر عليه هذا ·· فما من شاب فى ربيع العمر يخلو قلبه من بذور الحب ·· وما حاولت مرة ان اتدخل فى أموره الخاصة ، بل كان أقصى ما افعله هو ان ادعو له بأن يهديه الله ويوفقه الى الزوجة الصالحة ·

ولقد خيل الى أن الله قد استجاب دعائى وأن قلبه قد استقر على احدى الزهرات فقد بدأت مواعيده تنتظم ·· وكف عن السهر وعن عبث الشباب ، وحمدت الله الذى هداه بهذا الحب الجديد ·· وتمنيت أن تكون صاحبته من أصل طيب ، يشرفنا نسبه ، وأن تستقيم أموره معها ، حتى تكون له الزوجة المنشودة ·

وبدا لى فى حبها قريرا هانئا ·· دائم الاشراق ، دائم الفرحة ، حتى لقد أحببتها أنا دون أن أراها ودون أن يحدثنى عنها الا لماما ·· فلقد كنت أحس من هنائه هنائى ، وأستمد من رضاه رضاى ·

ماذا يكون من أمرى ·· بعد كل ما وصفته لك ·· عندما أعود الى الدار ذات مساء عقب زيارة بعض الأقارب ، فاذا بى أجد ضجيجا فى الدار ، واذا بى ألمح عربة الاسعاف تقف أمام الباب ·· ثم أستوضحهم الأمر فيقولون لى ان ولدى انتحر ؟

لقد سقطت على الأرض صريعة بلا حراك ·· فلما أفقت اندفعت كالمجانين ·· أسأل عنه وارتميت على جسده ، غير مصدقة أنه مات ·· أو قتل نفسه ·

هو يقتل نفسه ؟ ! الانسان القرير السعيد ٠٠ الشديد الايمان ، والقوى الأمل ٠٠ ينتحر ؟

كيف ؟!! ٠٠ كيف يمكن أن يفعل هذا ٠٠؟

لقد كان مثلا لانسان سعيد وما أحسست قط أنه يشكو ألما أو يضمر في نفسه حزنا ٠٠ أيمكن أن يكون قد انتحر بسبب من يحبها ؟

لا ٠٠ لا ٠٠ ان ولدى لا يمكن أن يقدم على ذلك ٠

ومع هذا ٠٠ فقد حملت الينا الرسالة التى تركها قبل أن يموت ٠٠ الجواب القاطع ٠٠ بأنه انتحر ٠٠ من أجل امرأة ؟

لقد كانت الرسالة تحمل الى ٠٠ الصدمة الثانية ٠

لقد وجدوها فى ثيابه وكانت موجهة الى صاحبته وكان بها ما يلى :

« عزيزتى ٠٠٠

أكتب اليك لأقول لك كلمتى الأخيرة قبل أن افارق الحياة ٠

لقد حزمت أمرى على الانتحار ، ولو تنبأ لى انسان قبل اليوم بأنى سأموت منتحرا لرميته بالجنون ٠٠٠ ولقلت انه انسان مخرف ٠٠ فما احتقرت فى حياتى انسانا كالمنتحر ٠٠ ولكنى الآن أحس أن من الغباء أن نبقى على قيد الحياة ٠٠ قولوا اننى جبان واتهمونى بما شئتم ٠٠ فما عدت أعبأ بكم وبدنياكم ٠٠ لقد أضحيت انسانا يائسا ٠٠ يائسا من كل شيء ٠

لقد أحببتك ، وما بى من حاجة الى أن أخبرك بمدى حبى لك ٠٠ لأنك تعرفينه خير معرفة ٠٠ ولأنى لم اكتب هذا لأشرح لك حبى ٠٠ لأخبرك برأيى فيك ٠٠ لقد أحببتك حبا من نوع لم أعهده فى نفسى ٠٠ حبا ملؤه الاحترام والثقة ٠ وأحسست أن نفسى قد شدت اليك ، وأن مصيرى قد ارتبط بمصيرك ، وأضحيت أنظم حياتى باعتبار أنك قد بت جزءا منها ٠ وأن أحدنا لم يعد له عن الآخر غنى ٠

ولست أزعم انى اريا بالمرأة عن الخيانة ·· وأتوقع منها الطهر والعفة ، فأنا شديد الخبرة بخيانة النســاء ·· ولكن انت · انت بالذات ·· كنت أتوقع منك ان تكونى خيرا مما كنت · كنت ارى فيك نسيج وحدك · كنت أضعك فوق مستوى البشر ·

ورغم كل هذا ·· ما اظنني كنت مقدما على الانتحار لو انك خذلتنى ·· وبددت أملى بطريقة طبيعيــة ·· وبخيانة عادية ·· كغيرها من الخيانات ·

بل يخيل الى ، لو انى ضبطتك مع أى انسان آخر لكان الأمر يمكن احتماله ، وما كان مثل هذا اليأس يطبق على فيسلبني صوابى ·

أجل ·· لو انك خنتنى مع أى انسان ·· غير ابى ·· لاستطعت ان احتمل ·

أما أن أفجع فيك ، وأنت كل شيء ·· وفيه وهو أبى ، ويعرف انني أحبك وانك منتهى أملى ·· فذلك ما لا أستطيع احتماله ·

لست ادرى هل تحبينه حقـــا كما سمعتك تقـــولين له أم أنك تخدعينه ؟ !

هل تخدعينني ، أم تخدعينه ، أم تخدعين كلينا ؟

وانى فى حيرة شديدة ، فهو رغم انه أبى ما زال يفيض قوة وفتوة ·· وما زالت به القدرة على فتنة النساء واغرائهن ·

انى فى حالة يأس مخيف ·· وانهيار تام ، لقد فكرت فى ان اقتلك ، أو اقتله ·· فلم أســتطع ·· لأنى أحبك وأحبـــه رغم كل ما فعلتماه بى ، وأخيرا فكرت فى أن اقتل نفسى فوجدت أن هذا هو خير حل ، فما عدت فى حاجة الى نفسى لأنى كرهت الحياة ، وما أظن هناك أحدا فى حاجة الى ·· اللهم الا مخلوقا واحدا ·· أحس بالندم من أجله ، وهو أمى ·

أمي الطيبة المخدوعة .. التي احس أني اتركها وحدها كاليتيمة فى مائدة اللئام .. وكالشاة وسط عصبة الذئاب .

انى أحس أنى جبان لأنى تركتها وحدها .. بينك وبينه .

ولكن ماذا أستطيع أن افعل ؟ ان الله معها .. فهى امرأة مؤمنة .. اما أنا فقد كفرت بكل شيء .. وانهارت ثقتى فى كل شيء .. وبت اشعر أن شفائى فى الرحيل عن دنياكم .. دنيا الزيف والخداع » .

★ ★ ★

تلك يا سيدى هى الرسالة التى تركها ولدى .. أو الطعنة الثانية التى وجهها القدر .

ولست أكتمك القول .. انها رغم كونها شر ما يمكن أن تصاب به زوجة لم تروعنى كثيرا ، فقد تركتنى الصدمة الأولى — موت ولدى — وأنا فى حالة ذهول وأصابتنى بألم جعل كل ألم غيره يتضاءل .. أو قل انها قتلتنى « وما لجرح بميت ايلام » .

وهكذا مضت الأيام الأولى عقب الحادث وأنا فى شبه اغماء ، لا أكاد أهتم لشيء أو أحس بشيء ، حتى بدأت أفيق لنفسى وأتطلع حولى فاذا بى أوشك أن أسلب الطير الآخر .

وأحسست بكره شديد لتلك المرأة التى أصابتنى بتلك النوازل والكوارث .. والتى سلبتنى أعز ما لدى .. ولدى وزوجى .. ووجدتنى أقف أمامها وجيدة عزلاء .

وفى ذات يوم صممت على أن أنهى الأمر وأن أذهب لمواجهتها .. وأريها الرسالة التى تركها لها ولدى ، وأسألها أن ترحمنى .. وتترك لى زوجى .

وذهبت اليها ، وطرقت بابها .. وأنا أحس أنى ذليلة كسيرة .. كأنى سائلة أستجدى .

ورأيتها لأول مرة .. مخلوقة صغيرة تملك أمضى وأفتك ما تملكه امرأة من روعة وفتنة .

وبدأت حديثى معها فى لهجة مستعطفة متوسلة .. وهى تضع ساقا على ساق ، وتتشاغل بتمشيط شعرها . وأعطيتها الرسالة .. فأخذت في قراءتها دون أن يبدو على وجهها اى علامة من علامات الحزن والتأثر .

وأخيرا رفعت حاجبيها وتساءلت فى دهشة :

ـ لست أدرى ماذا تريدين ؟

ـ أريد زوجى .. ردية الى . يكفى أنى فقدت ابنى .

ـ اسمعى يا سيدتى .. أنا لست مسئولة عن كل انسان ينتحر ، ولا أستطيع أن أمنع انسانا من حبى .. هل تريدين أن أفعل لك شيئا بعد هذا ؟

واحسست أن قولها قد مزق حشـاى .. وعزت على نفسى أن أهينها الى هذا الحد .

ولم أستطع سوى النهوض والانسحاب ذليلة كسـيرة .. كما أتيت .

يا للقدر العجيب ! ألم تجد هذه المخلوقة من تسلط عليه سياطها سواى .. ألم تجد من هؤلاء البشر سوى .. ولدى وزوجى ؟

ورفعت بصرى وأنا أغادر الغـرفة .. فواجهتنى صورة امرأة معلقة بالجدار ، واحسست من مرآها برجفة تسرى فى بدنى .

ووجدتنى دون تفكير أسأل عمن تكون .

وأجابتنى المرأة فى شيء من التعجب :

ـ انها أمى .. أتعرفينها ؟

أمها !! ورأيت الأعوام تترى أمامى ، وإذا بالماضى يتجدد . كيف لا أعرفها ؟. وقد نزعت منها خطيبها فى زمن مضى .. لقد سلبته

منها بعد أن أحب كلانا الآخر ولما تمض بضعة اشهر على خطبته لها ٠

أجل ٠٠ لقد كان زوجى الذى انتزعته منى هو الخطيب الذى انتزعته من أمها فى زمن مضى ٠

وتذكرت نصيحة أمى يومذاك ٠٠ وتحذيرها اياى بالا أتزوجه ٠٠ ولا أسلبه من خطيبته ، وقولها :- ان الظلم لا بد مردود ولو بعد حين ٠

ان القدر لم ينس فعلا ٠٠ بعد ثلاثين عاما ٠

وخرجت أتعثر فى أذيالى محنية الظهر ، مطأطئة الهامة ٠

اللهم هبنا من لدنك رحمة واغفر لنا ، واعف عنا ٠

لقد كانت المسألة كلها ٠٠ لا تعدو أن تكون ثأرا قديما ٠

امـــرأة قـــاتـــلة

وتطاير من نفسي الحب والطيبة والخلق والهـدوء والاستكانة ·· تطاير كل هذا ولم يبق في نفسي سوى احساسي بالجرح ·· ووقع بصرى على مسدسـه الذى يحتفـظ به في دولابي ، وبحركة لا ارادية مددت يدى وتحسس اصبعى الزناد ثم ضغط عليه ·

اسـقنيها فقـــد رأيت بعيني

في قـــرار الجحيم أين مكاني

اسقنيها ·· فقد نضب معين الروح وجف ماء القلب ·· اسقنيها علها تغرق اكداس المرارة وتفتت صخور اليأس ·

اسقنيها علها تطفيء حرقة في النفس ، وتبل سعيرا في الفؤاد ·· فان لم تفعل فلعلها مطفئة ذبالة حس ، هو كل ما تبقى لي لينكأ جرحى بين آونة وأخرى ، ويذكرنى بأن كومة الحطام التي تبقت منى مازالت كائنا حيا يحس ويتألم ويفكر ويتذكر ·

اسقنيها علها تذهب ببقية وعي وفضلة حس ·· هو كل مايربطنى بالحياة ويشدنى الى آلامها وأوجاعها ·

انى اكره الحياة ، لأنها شىء عويص غير مفهوم ٠٠ انها لغــز محير ٠٠ أوقد كتب على الانسان أن ينتهى دائما ـ مهما سلك من سبل ـ الى مثل هذا المصير اليائس التعس ؟

ألا يمكن أن يغير مسلكنا فى الحيـاة ـ اذا قومناه ـ خاتمتنا الشقية ؟ أم أن الشقاء ما دام قد كتب علينا فلا بد من وصولنا اليه مهما أجهدنا انفسنا فى تجنبه والفرار منه ؟

لو عرفت انى سانتهى الى هـذا المصير ، لسلكت اليه اهـون السبل ٠٠ ولو عرفت أنه سواء علينا كنا مخلصين أو منافقين ٠٠ وسواء كنا من اصحاب المبادىء والمثل ، او كنا أوغادا لئاما ٠٠ وسواء كنا ذوى قلوب عامرة بالايمان والحب ، أو كنا ذوى قلوب جامدة قاسية ، فان مآلنا واحد ومصيرنا لا يتبدل ٠٠ لو كنت اعرف هذا للفظت المبادىء وحطمت المثل ، ولسرت الى مصيرى حتى بلغته ، جامدة القلب ، عديمة الحس ٠٠ خائنة كاذبة منافقة ٠٠ كغيرى من الكاذبات الخائنات المنافقات ٠

كنت صغيرة ، ولم اكن اتصور الحياة قط يمكن أن تمعن بنا فى السخرية الى هذه الصورة ٠٠٠ وكنت أحاول دائما ان افكر بعقلى السليم وتفكيرى المتزن ٠٠ وكنت انظر الى الحيـاة نظرة هادئة مستوعبة ، أحاول أن أضع الشىء دائما فى موضعه ٠٠ وكنت اهدف فى حياتى الى اشياء ما ظننت قط أن الحياة ستبخل على بهـا ٠٠ وخاصة اذا ما سلكت اليها الطريق الصواب ٠٠ الذى يضمن لى أن يوصلنى اليها ٠

كنت دائما مخلوقة طيبة ٠٠ ما فكرت فى ان اوذى أحدا ، أو أتكبر على أحد ٠٠ ورغم هذه السنين الطوال التى قضيتها تحيطنى مظاهر الغنى والثراء ما أحسست فى قرارة نفسى بمتعة من هذه المظاهر ، فقد كنت اكرهها واكره أن أتميز عن سواى بما لا فضـل لى فيه ،

وكنت لا ارى فيها سوى مظاهر زائفة وشكليات تافهة لا يمكن أن تبعث في نفسي احساسا بميزة أو شعورا بفخر ·

هكذا كنت دائما ·· ارستقراطية ثرية في مجرد المظهر ، أما في باطني فقد كنت مخلوقة منطوية هادئة بسيطة طيبة ·

كنت افهم الحياة جيدا ، وادرك مدى زيف مظاهرها ، ولذا فلم اكن اطمع منها في اكثر مما يمكن ان تطمع فيه اية فتاة بسيطة عاقلة ، وهو أن اكون زوجة محبة وفية لزوج محب وفي ·

ولم اكن اظن ابدا أن هذا المطلب بالأمر المستعصي ، ولم اكن اظن هذه الأرض الواسعة ، ستبخل على فتاة طيبة بتد طيب ·· وكنت اعتقد أن المخلوق الطيب اذا ما سلك الطريق السوي فلا بد له أن يصل الى هدفه البسيط المعتدل ·

ومع ذلك فقد اضطربت بي ظروف الحياة ، واجبرتني على الرحيل عن أرض الوطن ، ولم يخطر ببالي وقت الرحيل أن الغيبة ستطول ·· بل ظننت الرحلة مطافا قصيرا الى العودة منتهاه ·

وكان الحلم الجميل يداعب نفسي ·· وكان الأمل الحلو يتراءى لي في افق الحياة المشرق ·· وما اظنني كنت في لهفتي على صنو النفس بالشاذة التفكير ، أو المرتكبة أمرا ادا · فما كنت — كما قلت — اكثر من فتاة ، وأي فتاة لا تتلهف الى صنو النفس ، وتوأم الروح ، وشريك الحياة ؟

لم يكن عجيبا اذن أن أتلهف على الحب ، بل العجب كان في ألا اتلهف عليه ، فتلك هي طبيعة البشر وانا بشر قبل أن اكون غنية ارستقراطية ·· وحتى لو كانت الارستقراطية تتلف قلوب الفتيات وتخمد مشاعرهن وتصيبهن بشذوذ في التفكير فقد كنت أنا غير ذلك ، لأني — كما قلت — كنت ضعيفة الاحساس بتلك المظاهر مبغضة لها ·

وهكذا رحلت عن أرض الوطن ، وبنفسي لهفة الى المجهول الذي يتلهف عليه القلب ويحن اليه الفؤاد ٠

وفي خلال الرحيل صادفته ٠٠ ذلك المخلوق الذي استطاع أن يتقمص الأمل المنشود والأمنية الحائرة ٠

لا أريد أن أبرر حبي له ؛ أو أعلل اسبابه ٠٠ فانتم أدرى بأن الحب شيء لا يمكن تعليله ولا تبريره ، اننا عندما نحب لا نستطيع أن نجد لحبنا اسبابا او عللا ٠٠ فهذا شيء يصاب به الانسان كأي مرض لا تجدي فيه أية رقابة ٠٠ انه شيء يفرض علينا فرضا ٠٠ لا سبيل لنا الى مقاومته ، ولا الوقاية منه ٠

هذا شيء مفروغ منه ، وقضية مسلم بها ، ولا اظن أحدا منكم يجاهله أو متكره ، فكما أن الانسان لا يملك أن يوقف الصواعق ، أو يمنع الزوابع ، أو يهدىء الزلازل ٠٠ فهو ايضا لا يستطيع أن يتقي أخطار الحب ، أو يتجنبه ، أو يجعل نفسه بمنجاة منه ٠

ورغم كل ذلك فاني لا أعدم المبررات التي قد تخفف من روعة هؤلاء المرتاعين ، وتحد من دهشتهم وذهولهم ، لانني أحببت رجلا فقيرا من غير طبقتي !

لقد كنت في حاجة الى الحب . وكان هو وحده ـ في هذه الغربة الطويلة ـ الذي يملكه ، وبمرور الزمن وطول الغربة ، وفرط حاجتي الى ذلك الحب ، لم أملك سوى قبوله . ومبادلتي اياه الحب المدخر في قلبي للالف المنتظر والخل المرتقب !

وهكذا وجدت الحياة قد كرمت وجادت علي بأمنيتي ولكنها لم تمنحني اياها بغير ثمن ٠٠ بل بثمن كنت على أتم استعداد لأن أدفعه عن طيب خاطر ٠

كان الثمن باهظا في نظر الناس ، الناس المخدوعين بزيف

الأوضاع وأوهام المظاهر · أما فى نفسى فلم يكن باهظا بل كان اتفه من أن يسمى ثمنا ·

لقد رأى من حولى فى حبى له ، قلبا للأوضاع وخرقا للتقاليد ·· ونصحونى بأن أعدل عن هذا الحب ، وأنبأونى بأنى ما زلت فتاة طائشة مخدوعة بأوهام الحب وبريقه الزائف الخداع ، وأن هذا الطريق السرابى الشائك الذى أحاول السير فيه والذى أتوهمه مليئا بالورود والرياحين ·· لن يلبث حتى يذهب سرابه ، وتذبل وروده ، وتبدو وحشته وقفره ·

ولكنى لم أبه لآرائهم ·· فقد كنت مقتنعة تماما بمبادئى فى الحب وآرائى ·· وكنت أعرف تماما أن الطريق الذى أوشك أن أسير فيه سيحقق بغيتى وينيلنى مطلبى ·

وهكذا أصررت على المضى فى طريقى ، وأصروا هم على أن أتجنبه وأنكص عنه ، ولكنى ضربت بإصرارهم عرض الحائط ، فثارت ثائرتهم وجن جنونهم ، وهددونى بأن يحرمونى من الارث ويتنصلوا عنى ويعلنون براءتهم منى ·

هذا هو الثمن الذى كان على أن أدفعه ·· ثمن فادح فى مظهره ·· بخس فى حقيقته ·· لقد هتف بى القلب الخفاق النشوان : ادفعى الثمن فانه يستحق أضعاف أضعافه ·

ودفعت الثمن راضية مغتبطة ، ورضيت من أجله بأن أفقد عطف الأهل والأصدقاء ، وأن أقطع كل صلتى بمن عداه ، وأن أبدو فى نظر الناس طريدة مشردة منبوذة ·

ومع ذلك فما أحسست قط بأى ندم ، وما رأيت فى فعلتى أية تضحية ·· فقد كان كل ما خسرته من عطف ومال لا يكاد يعادل مثقال ذرة واحدة من الهناء الذى كنت أحسه بقربه ·

وتزوجنا وبدأنا حياتنا معا ·· حياة رغدة ·· هانئة ·· بسيطة

.. كان كل همى فيها أن أهيىء له الراحة ، وأبدو له قريرة راضية ، وأزيل من نفسه أى احساس بأنى قد ضحيت من أجله .. ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد كنت فعلا قريرة راضية قانعة ، وما كنت أحس قط أنى قد فعلت أية تضحية .

ومرت بنا الأيام الأولى للزواج ، وأنا أتمتع بقدر من السعادة .. ما أظن أن الثراء والمظهر كانا يستطيعان أن يهيئا لى شيئا منها .

لقد تحققت مبادئى فى الحياة .. وثبت لى أن المخلوق الطيب اذا ما سلك الطريق السوى ، فلن يبخل عليه القدر بتحقيق أمانيه .. وأن خير ما نفعله فى الحياة لكى نضمن سعادتنا هو أن نختار الهدف الصائب ، ثم نسلك السبيل اليه متخطين فى عزم كل ما يصادفنا من عقبات تحاول أن تجنبنا الطريق ونغرينا بغيره .

وكان يعاودنى حنين الى الأهل بين آونة وأخرى .. ولكن قربه كان يصبرنى على فرقتهم .. وكان فرط محبته وتقديسه لى يبعث فى نفسى عزاء دائما عن كل ما فقدته من عطفهم ، وتقنعنى أنه يستحق أن أفقد من أجله كل شىء .

وانقضت الفترة الأولى من الزواج ، ونحن فى عزلة تامة عن الناس .. وكنت دائمة الضحك والمرح ، محاولة فى كل وقت أن أبدد ما يمكن أن يخيم علينا من سحب السآمة والملل .

وقد تتساءلون : من أين تأتى سحب السآمة والملل ، وعلى من تخيم ، وأنا القانعة الراضية الهانئة ، وهو الذى ما كان يحلم قط بأن يلقى مثل هذه التضحية ؟

ولكنى لا أجد مفرا من الاعتراف .. بأنى رغم كل ما فعلت من أجله لم استطع أن أمنع هـــذه السحب من التسرب داخل وكرنا والاحاطة به .. وبدا لى أنه لا يحاول كثيرا أن يعاونني فى مهمتى وأنه لم يعد يهمه أن يكتم ضيقه .

وهكذا وجدت نفسى رويدا رويدا فى موقف عجيب ، وتطور الأمر بى حتى انقلبت الآية بيننا ، فبت أستجدى مرضاته بعد أن كان يتلهف على رضاى ·

وبدأنا نخرج الى المجتمع ، ونختلط بالناس ، فقد ادركت أن طول الوحدة يوشك أن يعصف بحياتنا ، والتمست له العذر فيما أصابه من ملل ، لا سيما أنى وجدته ــ بعد طريقته الجديدة فى العيش ، واختلاطنا بالناس ــ قد عاد الى سابق رضاه وذهب عنه سخطه وتبرمه ·

ومرت بى بعد تلك فترة عجيبة لم أكن أدرى أنا نفسى مبلغ رضاى عن الحياة ، ولا مبلغ سعادتى وهناءى ·· ولكن الشيء الذى كنت واثقة منه هو أنى كنت أبذل كل جهدى لأحافظ على سعادتى ·· فقد كان يفزعنى أن أجد نظريتى فى الحياة قد خابت ، وأن نظرية من حولى قد أصابت ! وأن قولهم عن الطريق السرابى والورود الذابلة يمكن بمثل هذه البساطة والسهولة أن يتحقق ·

لقد كرهت أن تفشل جهودى فى الاحتفاظ بحياة مثلى ، وتفشل لغير ما سبب معقول ولغير ما ذنب جناه أحــد ·· سوى خمــود المشاعر وركود الحياة ، وصممت على أن أبذل كل ما فى وسعى حتى لا أكون موضع شماتة الشامتين ·· وأخذت أتفانى فى حبه وخدمته ·· وفعلت ما لا تفعله خادمة كرم معها القدر فاغرى بهــا سيدها واقدم على زواجها ·· فهى تحاول الاحتفاظ به !

أجل ! لقد انقلب الحال فبدا كأنه هو صاحب التضحية ·

ولم أكن أشك فى أن المثابرة والتصميم وقوة العزيمة والصبر يمكن أن تبلغنا أمانينا وتحقق مآربنا ، مهمــا بدت صعبة التحقيق بعيدة المنال ·· ولقد صدق ظنى فبدأت أستعيد رويدا رويدا أرضى

المفقودة من السعادة والهناء وأحسست أننى أنقذت حياتى من شر الملل والسأمة ·

وهكذا استعدت رضا زوجى ، واستعدت هناءتى ·· باستعادته هناءته ، واستطعت أن أجزم أن ملله وتبرمه لم يكن أكثر من عارض طارىء ·

هذا هو ما استطعت أن أجزم به ·· حتى حدث ذات صباح حادث بسيط تافه ·

كنت فى خارج الدار أبتاع بضعة حاجيات كنا فى حاجة اليها ، وكنت أتممت كل أعمالى التى تعودت أن أقوم بها فى البيت فى كل صباح من تنظيف الأثاث وترتيبه وكذلك أعددت الطعام اعدادا مبدئيا ، وتركته للخادمة حتى يتم نضجه ·

وكان زوجى قد ذهب الى عمله ·· ولم يكن يعود منه قبل الساعة الثانية ·

وقد عقدت العزم على أن أعود الى البيت فى الساعة الواحدة حتى أتأكد من أن كل شىء على ما يرام ·

ووصلت الى البيت والساعة تدق الواحدة ، وحثثت الخطى على الدرج حتى وصلت الى الباب ودفعت فى ثقبه بالمفتاح الذى كنت أحتفظ به معى ، وهرولت الى المطبخ لأطمئن على الطعام ، فوجدت القدر يفور ولم أجد الخادم ، وبحثت عنها فى الحمام فلم أجد لها أثرا ·· وكان أول ما مر بذهنى هو أنها قد هربت ، وخشيت أن تكون قد سرقت بعض الحلى والنقود ، فأسرعت الى حجرتى لأطمئن على الصندوق الذى أضع فيه الأشياء الثمينة وأغلق عليه دولاب ملابسى ·

أسرعت الى حجرتى ودفعت الباب ، ولكننى لم أتقدم الى دولاب الملابس ، فما كانت بى هناك من حاجة الى الشك فى أنها قد سرقت

نقودى أو حليى ·· لأنى بنظرة واحدة استطعت أن أتبين أنها قد سرقت شيئا أثمن من هذا ·

لقد سرقت زوجى !

أجل ! لقد وجدتها هناك فى حجرة نومى ، وعلى فراشى وبجوارها الرجل الذى ضحيت من أجله بكل ما أملك ·

لقد ضحى بى هو من أجل خادم !

ومرت بذهنى فى سرعة البرق ·· المبادىء السامية ·· والأهداف العالية ، والحياة المثلى ، والتضحية ·

ولم أستطع أن أكتم ضحكة ساخرة انطلقت من شفتى ·

اذن فقد كانت هى التى نجحت فى تبديد سأمته وتبرمه ·

لقد كانت هى وحدها ·· ولم تكن جهودى أو تفانى فى حبه وخدمته وراحته · لم يكن تصميمى وعزمى ومثابرتى وصبرى هو الذى حقق أملى فى اسعاده ، بل كانت هى !

وتخيلت الأهل والصحاب الذين ضربت بأقوالهم عرض الحائط ، والذين قلت لهم ان الحب هو كل شيء ·· تخيلتهم حولى يرون المنظر الذى ابصره ·· ترى ماذا هم قائلون ؟

اقسم أن افكارهم عندما حذرونى لم تكن قد وصل بها توقع السوء والخذلان ، هذا الحد ·

وران الصمت على الحجرة لحظة ·· صمت الذهول والدهشة ، ثم وجدت وجهه قد علاه الحقد والغضب ·· وسمعته يصرخ بى آمرا اياى بالخروج ·

هكذا ! أنا أخرج ؟ طبعا ·· لقد قطعت عليه متعته ·· وشاركته فى خلوته ·

وجن جنونى ، فقد وقع على فعله وقوع الصاعقة ·

وتطاير من نفسي الحب والطيبة والخلق والهدوء والاستكانة ، تطاير كل هذا ·· ولم يبق في نفسي سوى احساسي بالجرح ·· ووقع بصري على مسدسه الذي يحتفظ به في دولابي ·· وبحركة لا ارادية مددت يدي ، وتحسس أصبعي الزناد ، ثم ضغطت عليه ·

وفي لمح البصر انطلق الدوي ، ثم وجدته أمامي يتلوى في الفراش متخبطا في دمائه !

وأحسست براحة شديدة ، ولم يتملكني أقل ندم ·· وغادرت الحجرة وارتميت على أقرب مقعد ·

★ ★ ★

انهم سيبرئون ساحتي ·· ولكن سواء عندي البراءة أم الادانة ·· فما عدت أهدف في الحياة الى شيء ·

لقد كنت فتاة طيبة مصلية ·· ولكني الآن لا اشعر في الطيبة والصلاة بأي عزاء ·

شيء واحد هو الذي أجد فيه عزائي ·· ولو كنت أعرف أن هذا هو مصيري لسلكت اليه من أول الأمر أهون السبل :

اسقنيها فقد رأيت بعيني   في قرار الجحيم أين مكاني

٦ رجـــال

رجـــل مغـــرور

وصمت برهة .. وحلا لي أن أقبل التحدي .. وأن أريهم أني على مرحي وميلي إلى المزاح .. قدير على الجد ، حلال لمستعصي الأمور ، وأني سآتي لهما بما لا يستطيعانه .

كنت أظن نفسي عاقلا .. وكنت أظن التجارب والسنين قد أحاطتني بسياج منيع من الحكمة والتبصر .. كنت أظن ذلك .. حتى حدث ما حدث فعلمت أني ما زلت مغرورا مأفونا .

وأني سأظل إلى الأبد طفلا كبيرا ، وأني خدعت نفسي فحملتها من الثقة ما لا طاقة لها به .

بدأت القصة بلقائنا في لبنان .. عائلتان مصريتان تبتغيان الراحة والسكون في مصيف هادىء .

وكان للقائنا فرحة شديدة .. يعرفها الغرباء العاثرون عندما يلتقون ببني أوطانهم في أرض غريبة .

ولم يكن هذا أول لقاء لنا .. فقد كانت بيننا معرفة قديمة نشأت

عن زمالة الزوجتين فى أيام الدراسة وعن صداقتى للزوج صداقة اللقاء العابر والتحية الخاطفة ·

وجمعنا فى شهور الشوير فندق واحد وسكن متجاور وسرعان ما توثقت عرى الصداقة حتى اضحينا عائلة واحدة ·

وكانت عائلتى مكونة منى ومن زوجتى ومن ابنتى فى السابعة ، وابنى فى الثالثة ، أما العائلة الأخرى فكانت تتكون من الزوج والزوجة وابنتهما الكبرى فى السادسة عشرة وابنتهما الصغرى فى الثامنة ·

وكنا نكون فى جلستنا شلتين ·· الشلة الكبرى مكونة من الأربعة الكبار : الزوجين والزوجتين ·· والشلة الصغرى مكونة من الأربعة الصغار : الثلاث بنات والولد ·

ورغم تفاوت الأعمار فى الشلة الصغرى فقد كان الانسجام بين أعضائها تاما والاتصال وثيقا ، وكانت تتزعمها ليلى الابنة الكبرى لصاحبى ، ولم تكن تبدو فى لهوها أكثر من طفلة غريرة لا فارق بينها وبين ابنتى ·

وفى ذات ليلة وقد جلسنا ــ أعنى الشلة الكبرى ــ نتسامر فى احدى شرفات الفندق سمعنا صراخا صادرا من حجرة الأولاد فصاحت زوجة صاحبى تتساءل ، وقد استطاعت أن تميز فى الصراخ صوت ابنتها الصغرى :

ــ ما بك يا كوثر ؟

وسرعان ما أطل علينا وجه ليلى وعليه سيماء الغضب واجابت أمها :

ــ لقد ضربتها يا ماما ·· لأنها مزقت فستان العروس الذى صنعته لها ·· ورسمت بالقلم فى احدى كراساتى ، وقد حذرتها من ذلك مائة مرة ·

ـ أسكتيها يا ليلى وصالحيها ·· فلست أريد أن أسمع صوت بكائها ·· كوني عاقلة يا ليلى فانك أنت الكبرى ·

ـ وماذا أفعل لها ؟ لقد غاظتني ·· ولا بد أن أؤدبها ·

وهزت ليلى كتفها ثم اختفت داخل الغرفة ·

ووجدت الأب يهز رأسه أسفا ويضرب كفا بكف ويقول :

ـ لست أدرى متى ستكبر هذه البنت ·· فيما مضى كانت البنت لا تبلغ السادسة عشرة الا وقد صارت امرأة لها ثلاثة أولاد ·· واليوم وقد بلغت السادسة عشرة فهى ما زالت تتعارك مع أختها من أجل فستان العروسة ·· ترى متى تعقل وتكبر ؟ !

وضحكت ·· اذ لم أر المسألة تستحق كل هذا الأسف من صاحبى وقلت له مهدئا :

ـ بكره تعقل وتكبر ·· دعها تتدلل فى كنفك وفى عزك ·· علام العجلة ؟

ـ أظن ستة عشر عاما كانت كافية لأن تعقل وتكبر وتقدر ·· ولكنها للأسف لا تقدر شيئا ·

ـ وماذا تريد منها أن تقدر ؟

وأجابت الأم ضاحكة :

ـ تقدر طبيعة الأوضاع فى الحياة ·· وتفهم أنها لا بد أن تصبح عما قريب زوجة مسئولة عن بيتها وزوجها وأما مسئولة عن أولادها ·

ـ هذه أشياء ستفهمها مع الزمن ·

ـ انها لا تريد أن تفهمها ·· انها لا تريد أن تفهم سوى اللعب والعرائس والمدرسة والتلميذات ·

ـ ولكن ماذا يقلقكما من هذا ؟ وأى شيء يدعوكما الى التعجل فيه ؟

ـ يقلقنا أنها مخطوبة ·· ولكنها ترفض الخطوبة · ترفضها

وتثور عليها بطريقة صبيانية جاهلة بلهاء ·· كأنها تظن انها ستظل طيلة عمرها صبية تلعب فى بيت أبيها ·

ـ ولكنها على أية حال صغيرة ، وليس هناك خوف من أن تفلت منكما فرصة خطوبتها هذه ·· ان الفرص ما زالت كثيرة ·

وساد الصمت برهة أشعل الأب فيها سيجارته ثم عاد يدلى بحجته قائلا :

ـ أولا ·· هى ليست صغيرة بل كما قلت لك فتاة فى السادسة عشرة يعنى امرأة ناضجة ·· وفترة الخطوبة قد تستغرق سنة أو سنتين ·· فهى والحال كذلك لن تتزوج قبل الثامنة عشرة ، ولا أظن ان هذه السن تعتبر غير ملائمة للزواج · أما من حيث أن الفرص ما زالت كثيرة فأنا لا أرى هذا ·· أن الخطيب شاب مثالى لا عيب فيه ولا هنة ·· انه مهندس نابغة ·· كريم الخلق ، طيب الأصل ·· وافر الثراء ·· حسن المظهر ·· كل شىء فيه ممتاز ·· ولست أظن الانسان يصادف مثله كثيرا فى الحياة ·· فمن الغباء أن نرفضه لمجرد أنها لا تفهم طبيعة الأوضاع فى الحياة ·· انى أعتقد أن هذه الفرص لا تقبل على الانسان الا مرة واحدة ·· فمن الحمق أن نتركها تفلت ·

ووجدته على حق ·· فالفتاة ناضجة شكلا وجسدا ·· وفرص الزواج الصالحة ليست متعددة فى أيامنا هذه ، فاذا كان الخطيب ، كما وصف ، فمن الحمق رفضه ·· ان الفتاة الحمقاء المدللة لا تريد الزواج لأنها لا تعرف ما هو الزواج ·· ولأنها تظن انها يجب أن تظل هكذا ترتع فى كنف أبيها ·

وعجبت من ظروف الحياة ·· كيف يبتلى بعض الناس بالنعم ·· لأن حالة هذه البنت يعتبرها بعض الناس نعمة ، فأنا أعرف أناسا يشكون من فجور بنات هذا الجيل ومن أن البنت أضحت وهى فى

الثانية عشرة تفهم كل شيء ، وأنها عندما تبلغ الرابعة عشرة يحطم قلبها ما لا يقل عن عشر حوادث عشق ، وفي السادسة عشرة تشكو من انها اضحت عانسا بائرة ٠

ولم أملك سوى الضحك وقلت لصاحبي وزوجته :

ـ يبدو لي أن الذنب ذنبكما ٠٠ فقد كان يجب عليكما أن تتفاهما مع البنت وتصادقاها ، وألا تتركاها هكذا تمضي جل وقتها مع الأطفال الصغار وألا تعاملاها كما تعاملان اختها الصغرى ٠٠ على أية حال لست أرى المسألة مستعصية الحل ويخيل الى أن حلها يحتاج الى بعض الصبر في محاولة اقناعها وافهامها ٠

ـ لقد حاولت عبثا أنا وأمها ٠٠ ان عقلها زاخر بالتفاهات ، انه لم ينضج بعد ، بل هو ما زال عقل طفلة غريرة ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ هذا كلام لا أفهمه ٠٠ يجب أن تبذلا بعض الجهد ٠

وأجابت الأم يائسة :

ـ لقد بذلنا كل ما في وسعنا لاقناعها بقبول الخطيب ولكن جهدنا ذهب سدى ٠

ـ الجهد لا يكون باقناعها بقبول هذا الخطيب بالذات بل يجب أن يبذل الجهد لافهامها طبيعة الحياة ٠٠ ولتوسيع مداركها وايقاظ وعيها ونقل تفكيرها من تفكير طفلة الى تفكير امرأة يجب أن تخرج من تلك الركود الذهني ٠

ـ لا فائدة ٠٠ انها مصرة على أن تكون طفلة ٠٠ ومصرة على رفض الخطيب ٠

ولكني مع ذلك لم أقتنع بأن حالة الفتاة مستعصية الحل ، بل بدا لي انه يمكن علاج الفتاة بشيء من الأناة والصراحة ، وخيل الى انني أستطيع أن أمد يد المساعدة وانني قد أكون أقدر منهما على تنمية تفكير الطفلة لا سيما وانه لا يقوم بيني وبينها ذلك الحجاب الثقيل من احترام الأبوين وخشيتهما ٠

اجل ·· انني اقدر بلا شك على التفاهم معها ·· فانا مخلوق مرح مهزار لا اعتبر كثيرا قيم الاعمار والمراكز ·· بل كثيرا ما اندمج في اللعب مع الأطفال حتى كأني واحد منهم ·

والطفلة نفسها لا تنفك تدعوني الى اللعب معهم مناديتي مازحة·· بـ « انكل جو » سائلة اياي أن اصنع لهم طيارة أو زمارة ·

ولم أكن ارفض اللعب أو اخجل منه ·· رغم ما كنت اتهم به من الهيافة ·· بل كنت اقضي الساعات لاهيا عابثا قافزا واثبا ·· مستمعا الى شكواهم ·· قاضيا في نزاعهم ·· وهم يمسكون بخناقي ويتواثبون على كتفي ·

كنت أنا الذي اهبط الى مستوى الطفولة التي ترتع فيه البنية ·· وكانت هي التي تشدني اليها ·· من أجل الضحك والمرح واللعب ·

افلا أستطيع ـ وأنا « انكل جو » صديقها الحميم ـ أن ارفعها مرة الى مستوى الفهم والادراك والتقدير ·· من اجل مستقبلها ؟

دار كل هذا في رأسي خلال فترة الصمت التي اعقبت النقاش ·· ويبدو أن المناقشة بين ثلاثتنا انا والأب والأم · كانت لا بد مؤدية الى نفس التفكير في الرؤوس الثلاثة ·· وأن ما دار في ذهني قد انعكست منه صورة في كل من ذهنيهما فقد سمعت الأم تضحك ضحكة خافتة ثم تقول :

ـ لم لا تجرب أنت ؟ فقد تستطيع أن تنجح فيما فشلنا فيه ·· حاول أن تخرجها عن ذلك اللعب الصبياني ·· فقد تفهمك وتستمع اليك · ألست صديقها الحميم « انكل جو » ؟

وضحكت زوجتي وقالت مازحة :

ـ لا تنتظري منه خيرا ·· انه لا يصلح في أعمال الجد قط ·· أنه لا يجيد سوى اللعب بالنحلة والطيارة ·· انه هو نفسه في حاجة الى من يرفعه من مستوى الطفولة ·

وصمت برهة ·· وحلا لى أن اقبل التحدى ·· وان اريهم انى على مرجى وميلى الى المزاح ·· قدير على الجد حلال لمستعصى الأمور ، وانى سأتى لهما بما لا يستطيعانه ·

ورايت الثلاثة يرمقوننى وعلى شفاههم ابتسامة انتظار فقلت متحديا :

ــ دعوها لى ·· انى كفيل بها ·· لن تعود من المصيف الا وقد قبلت الخطيب ·· من يراهن ؟

وأجاب الأب ضاحكا :

ــ لا داعى للرهان ·· فانك لا شك خاسره ·· يكفى انك ستضيع وقتك عبثا ·

ــ بل انى اقبل الرهان أيا كان ·· خمسة جنيهات لخمسة · ما رأيكم ؟

ــ حسنا ·· قبلت ·

وغادرنا الشرفة ضاحكين ·· وفى اليوم التالى بدأت العمل ·· لكسب الرهان ولكسب مستقبل الصبية وانقاذها من تفاهة تفكيرها ·

وكنت اظن المسألة لن تستغرق منى اكثر من جلسة أو جلستين ·· افهم الصبية خلالها انها قد كبرت وانها لا بد أن تتحمل مسئوليتها فى الحياة كزوجة وأم ·· واشرح لها متعة الحياة التى توشك أن تقبل عليها ·· وكيف سيكون لها بيتها وكيانها فى المستقبل · وكيف ستكون ربة أسرة وسيدة بيت ·

لقد اخذت احضر كل هذا فى ذهنى كما يعد المحاضر محاضرته ·· وكنت اعتمد كثيرا على لباقة لسانى وقوة اقناعى وعلى ثقة الفتاة بى وعلى التفاهم الذى نشأ بيننا فى اللعب والمرح ·

وصحبتها فى نزهة قصيرة فى الجبل فى الصباح المبكر ·· زاعما لها انى أريد أن أريها عشا للعصافير مليئا بالبيض الملون ·

وقالت لى وهى تشير باصبعها مهددة :

ـ اياك أن تكون كاذبا .. انى لم أر من قبل بيضا ملونا للعصافير ؟

ـ سترين بعينك انى لا اكذب .

ـ لم ناخذ معنا سامية ونادية وجمال .

ـ انهم ما زالوا نائمين ولو تاخرنا لفقس البيض .

وسرت واياها فى الطريق الجبلى الضيق ، نهز ايدينا المتشابكة ونصفر فى مرح وجذل حتى بلغنا صخرة صغيرة أشبه بالمقعد تشرف على سفح الجبل المكسو باشجار الصنوبر فطلبت منها الجلوس .

ولكنها سالتنى مستفسرة :

ـ اين العش ؟

واخذت التفت حولى متصنعا الدهش قائلا :

ـ عجبا .. كان هنا بالأمس يا ليلى .. اين ذهب ؟ لقد كان فوق هذه الشجرة بالذات . لا بد أن تكون الأم قد نقلته .. على أية حال دعينا نستريح .. ونتحدث برهة .

وجلست بجوارى ونسيم الصبح الرطب يهب على وجهينا والشمس ترسل مقدماتها الأرجوانية من وراء الجبل . وبدأت المحاضرة .. محاضرة اقسم لكم أنها تعتبر من روائع الكلم .. واحسست خلالها باعجاب بنفسى وبقوة منطقى وذلاقة لسانى .. وتوقعت فى نهايتها .. أو حتى قبل نهايتها أن تتركنى الصبية وتعود راجعة الى أبويها .. ثائرة عليهما لتركها حتى الآن بلا زواج .

ولكن المحاضرة بلغت نهايتها والفتاة ما زالت جالسة بجوارى وقد أخذت تتسلى بقضم أظافرها .

وقلت لها ناهرا :

ـ ليلى .. كفى عن قضم أظافرك .. لقد كبرت .. وكان مفروضا

عليك أن تتركى انامك تنمو وتطليها بالمانكير بدل أن تقضميها حتى يبدو لحم أظافرك ·

ثم صمت برهة تمالكت فيها نفسى وقلت مترفقا :

ـ ما رأيك يا ليلى بعد كل ما قلت ·· ألا توافقين على الخطبة ؟

ـ لا ·· لا يا أنكل جو ·· لا أريد الزواج ·

ـ لم يا ليلى يا حبيبتى ؟ · انك لم تعودى بعد طفلة ؟

ـ ولماذا أتزوج وأنا أشعر بمنتهى السعادة فى حياتى هذه ·· ان لدى ما أريد ·· وأبى وأمى لا يبخلان على بشىء وهما يذهبان بى الى السينما وقتما أشاء ، وما من شىء أطلبه الا ويحضرانه لى ·· ألا تعلم انهما سيبتاعان لى دراجة ·· بمجرد عودتى الى مصر ؟

سأتعلم ركوبها ·· وسأعلم نادية ·· وان لم تتعلم سأحملها ورائى على المقعـــد الخلفى وسأزوركم بهـــا ·· هل تجيد ركوب الدراجات يا أنكل جو ؟

وأجبتها بزفرة حارة ·· ونفخة مليئة باليأس ونظرت اليها شزرا وأنا أضغط على أسنانى ·

وسألتنى فى سذاجة وبراءة :

ـ ماذا أغضبك يا أنكل جو ؟! ألا تعرف ركوب الدراجة ؟·· انى أستطيع أن أعلمك بعد أن أتعلم أنا ·

ولم أجد هنا فائدة من المناقشة ·

ماذا أقول لهذه الحمقاء الصغيرة ·· وقد انتهت بها محاضرتى القيمة عن طبيعة أوضاع الحياة وفوائد الزوجية ·· و ·· و ·· الخ ·· الى أن تعرض على أن تعلمنى ركوب الدراجات !

وسحبتها من يدها وعدنا أدراجنا ·· وهى ما زالت تحدثنى عن الدراجة التى سيحضرها لها أبوها ··

وخجلت بالطبع أن أعرض عليهم نتيجة محاولتي ·· وصممت على الا أيأس ·· وعلى أن احاول مرة ثانية ·

أجل ·· لقد اقتنعت بخطأ الطريقة التي اتبعتها ، وعزمت على أن أحاول بطريقة أخرى ·· كان من الحمق أن احاول النجاح بسرعة فاتبع الطريق المباشر القصير ·· بدل أن أتبع الطريق الطويل غير المباشر ·· الذي يحتاج الى أناة وجد وروية ·· والذي لا تبدو نتيجته جلية واضحة ·· ولكنها ستأتي مع الزمن ·

لقد فشلت طريقة الاقناع بالمحاضرات ·· فعلي أن أتبع طريقة الاقناع العملي ·

وفي اليوم التالي صممت على أن أسألها الخروج معي في نزهة مبكرة ·· ولم أكن في حاجة الى التملق بعش العصافير والبيض الملون ·· فقد عرضت الخروج من تلقاء نفسها قائلة انها استمتعت بنزهة الأمس ·

وخرجنا في الفجر نضرب وحدنا في الجبل ·· ولم أحاول قط أن أحاضرها ·· أو أن أرفعها الى مستوى التفكير والتبصر ، بل رحت أعدو وراءها وتعدو ورائي ، وعدنا في النهاية وبي عدد من الخدوش والجروح التي إصابتني نتيجة تسلقي احدى الأشجار لأحضر لها بعض الزهور ·

واستمرت نزهاتنا يوما بعد يوم ·· وفي كل يوم يقل العدو واللعب ·· ويزداد الهدوء والتأمل والتمعن ·

لم أحاول أن أفعل شيئا ·· ولكن النسائم الرطبة الخفاقة والشمس المتثائبة وراء الأفق ·· والورق الهتوف والبلابل الصادحة، والأوراق الخضر تترنح وتتمايل على سفح الجبل قد فعلت شيئا كثيرا ·· أكثر مما أتوقع ·· ومما أحتمل ·

لقد بدأت الصبية الطائشة التافهة ·· ذات الطيارة ، والزمارة

والدراجة ·· تتمهل في سيرها وتكف عن عدوها · وأضحت تتوقف بين آونة وأخرى لتشير باصبعها الى هنا أو هناك ، ثم تهتف في لهجة لينة وصوت حنون :

ــ أترى هذا الغصن المحمل بالزهر ؟! انظر كيف يحركه النسيم ·· ان القليل من الناس هم الذين يفطنون الى جمال الطبيعة ·

ــ نعم ·

ــ ارأيت أجمل من شروق الشمس يا أنكل جو ؟

اجل ·· لقد تبدل حديثها الى « أنكل جو » من حديث عن العرائس والدراجات الى حديث مليء باستيعاب جمال الكون وفتنة الطبيعة ·· وخفتت صرخاتها الجوفاء الضاحكة فأضحت همسات حنونة أشبه بالزفرات ·· و « أنكل جو » بين هدوئها وتأملها وحديثها وهمسها ، يرقب التطور حائرا وجلا ·

لقد كنت أستطيع أن اجزم من ذلك الهدوء أني قد كسبت الرهان ·· أو على الأقل أوشك أن اكسبه ·

ان الفتاة قد تبدلت وخرجت عن سربال الطفولة ·· وكسرت البيضة التي كانت تضمها وتحجب عنها كل ما يتفتح عليه ذهن الفتاة وقلبها في هذه السن وكشف لها ما يجب ان تهفو اليه روحها وتصبو اليه نفسها ·

كان هدوء الفتاة وسكينة قلبها ·· بشائر انتصاري ·

ولكني كنت أوجس خيفة ·· خشية أن يكون هدوءا ينبيء عن عاصفة أو سكينة تستبق ثورة جامحة لا يعلم الا الله مداها ··

كنت اخشى الفتاة ·

وشر من هذا ·· كنت اخشى نفسي ·

كنت اخشى على كلينا من الآخر ·

وبينت الأيام اني كنت من خشيتي على حق ·

أذاك أمر غريب ؟

قد يبدو كذلك ·· ولكن لو حلل كلانا تحليلا صادقا لبدا الأمر غير عجيب ·

ولو كنت أكثر حكمة وتبصرا لما زججت بنفسي في هذا المأزق ·· ولما نسيت نفسي فحملتها ما لا تحتمل من الثقة ·

كيف كانت ليلى الصغيرة ؟ وكيف كنت ؟

كيف كانت التجربة ·· وكيف واجهتها ؟

وسط خمائل الجبل ، وبين الورق الهاتفة ·· نسير متجاورين في كل فجر ·· فاذا ما جلسنا شردت الصغيرة في الأفق البعيد ومدت يدها في صمت تتلمس يدي ·· فتعانق أصابعها أصابعي وتلاصق كتفها كتفي ·· وتظل شاردة لا تنبس ببنت شفة ·

فاذا ما هممت بسحب يدي ضغطت عليها مستبقية ·· واذا هممت بالنهوض نظرت الي نظرة استعطاف ثم سألتني :

ـ اتضايقت سريعا ؟ أما نجلس هنيهة اخرى ؟ ان الوقت ما زال مبكرا ؟

وكنت لا أملك الا الجلوس واستبقاء يدها في يدي ·

وهكذا كنا نجلس ·· صمت في صمت ·· ولا شيء سوى الصمت المطبق والأصابع المتعانقة والأكف الضاغطة · وكنت أشعر انه يجب أن أوقف هذه النزعات ·· وأن أكف عن هذه الخلوات رغم انه لم يشبها قط شيء ظاهر ·

أجل ·· كنت في باطني أحس ان ما لا يجب أن يحدث يوشك أن يحدث ان لم يكن حادثا بالفعل ·· ان الظاهر صامت بريء ·· ولكن الباطن صاخب والحشا تضيع ·

كان يجب ان أوقف كل هذا ·· وان أضع له حدا ·· ولكني كنت أفزع من أن أخدش مشاعرها ·· أو أسبب لها ضيقا أو حزنا ·

وكنت أنا نفسي ـ رغم كل مقاومة ـ قريرا بالجلسة الصامتة ·· والأكف المتشابكة ·

لقد انتزعتني الصغيرة ·· من كبرى وتجاربي وعقلي ·· كما انتزعتها من طفولتها وتفاهتها ·· ولعبها ·· لقد انتزع كلانا صاحبه مما كان فيه من الركود ·· والتقينا في منتصف الطريق ·· بمشاعر مستعرة ·· وأحاسيس متاججة ·

ولقد كبحت جماح نفسي جيدا ·· وبذلت المستحيل حتى لا انسى نفسي وموضعي ·· ولا أندفع وراء القلب الأحمق الخفاق ·· فاقدم على أجن حب يمكن أن يقدم عليه انسان ·· حب لا يمكن بأية حال أن ينتهي الى نتيجة معقولة ·

ولا أنكر اني افلحت ·· الى اقصى حد ·· واني لم اكن افعل سوى الجلوس بجوارها والشرود وترك يدها في كفي مسترقا البصر من آن لآخر الى جانب وجهها الحلو ، وانفها الدقيق وخصلة شعرها المهتزة على جبينها ثم أحول بصري سريعا عندما أشعر انها قد أحست بنظراتي وبدأت تحول الى عينيهـا ·· كنت اتجنب دائمـا التقاء العيون ·

لقد افلحت في هذا ·· حتى جلسنا ذات فجر كما تعودنا أن نجلس واحسست بيدها تزداد ضغطا على يدى كأنها كانت تقول لي شيئا ·· كنت افهمه جيدا ·

واخذت أرقب جانب وجهها والخصلة المهتزة على جبينهـا ·· حتى وجدتها تلتفت الى ·· ورايتهـا تضغط باسنانها على شـفتها السفلى كأنها تقاوم في باطنها ألما شديدا ·

وعندما التقت ابصارنا اندفعت في بكاء شديد ·

ولم أملك الا أن أضمها الى واخفى وجههـا في صدرى واخفى وجهى في شعرها ·

وظللنا على ذلك حتى كفت عن البكاء ثم عدنا ادراجنا وكان من الجنون أن نستمر على ذلك ٠٠ فما أظن نفسينا كانتا تستطيعان ان تحتملا اكثر ٠

وكان على بعد ذلك أن افعل شيئا ٠٠ فانتهزت فرصة ذهابها هى وعائلتها الى دعوة فى صوفر ، وحزمت امتعتى وعدت وعائلتى الى القاهرة فى أول طائرة ٠

لقد عدت وأنا اشبه بالهارب المذعور ٠٠ الذى اطلق للريح ساقيه ٠٠ فرارا من خطر داهم ٠

أترى كنت فى فرارى جبانا ؟

كنته أو لم اكنه ، لقد كان هذا هو الطريق الوحيد لوضع نهاية للأمر ٠

لقد كان على أن أحتمل الم الفرقة مهما كان ٠٠ من اجلها ٠٠ ومن اجل نفسى ٠

لقد تركتها بلا وداع ٠٠ فشر ما فى الفراق وداعه ٠

لقد غادرتها بلا انذار ٠٠ الا من رسالة قصيرة ٠٠ ووضعتها تحت حجر حيث تعودنا أن نجلس وحيث كنت واثقا انها وحدها ٠٠ التى تستطيع أن تعثر عليها ٠

وما زلت اذكر ما كتبته وأحفظه عن ظهر قلب :

« اشعر يا ليلى اننا قد وصلنا الى حيث يجب أن نفترق ، ان لى سبيلى ولك سبيلك ٠

ولقد اشركتنا الأقدار الهوجاء برهة فى سبيل واحد وكان ذلك منها تجربة قاسية مريرة ٠

فقد كان من المستحيل أن نستمر فى السبيل المشترك او يجنب احدنا الآخر الى سبيله ٠

ولذلك فقد آثرت أن أتركك ملتاعا محزونا ٠٠ بلا عزاء عن فرقتك

سوى تلك المتعة التى جنيناها من لحظات سيرنا فى الطريق المشترك ·

لقد بدأت المسألة بيننا بسبب رهان ·· فلقد راهنت اباك انى سأخرجك من طفولتك وساجعلك تقبلين خطيبك ، وأرجو الا يخذلك قولى ·· وأن يعزيك عنه ·· اننى ــ بكل حمق ــ خرجت من كبرى وحدت عن غرضى واحببتك فعلا ·

أرجو أن تساعدينى على كسب الرهان ·· وان تقبلى خطيبك ·· وتسلكى سبيلك الخاص بك ·· فان هذا سيكون لى خير عزاء ·

ليمر كل منا فى سبيله ، ولنجعل من حبنا ذكرى حلوة تعيننا على تحمل مشاق الحياة ·· وتسعدنا عندما تطبق علينا همومنا ·

اجل لنجعل حبنا بارقة تلتفت اليها كلما خضنا ظلمات الحياة ·

اليس هذا خيرا من أن نجعله نارا تحرق قلوبنا وتدمر كياننا ؟

مزقى رسالتى هذه ، حتى لا يبقى بيننا الا ما يستتر فى القلوب ·

واذا كنت تنوين أن تحققى رجائى ·· فخذى الرهان من أبيك واجعليه هديتى فى عرسك »

ولم القها بعد ذلك الا وفى يدها طفلها ، واقبلت على تشد على يدى فى شوق وتقول ضاحكة :

ــ كيف حالك « يا أنكل جو » ؟ هذا هو ابنى « جو » الصغير ·

لم لم تسأل عنى ؟! لقد جعلتك تكسب الرهان ولكننى لم أمزق الرسالة ·· لأنى جعلتها كما قلت فيها:

« ذكرى حلوة ·· تعيننا على تحمل مشاق الحياة ·· وتسعدنا عندما تطبق علينا الهموم » ·

رجـل مخـدوع

آه لو علم وقتـذاك مدى حقـارتهن وتفاهتهن .. وآه لو يعلم ان هذا الجنس ليس أكثر من وسيلة للتسلية والترفيه .

آه لو علم هذا .. لوفر على نفسه الألم واللوعة ..

ولكنه كان معذورا .. فقـد كان الحب الأول .. وكانت الصدمة الأولى .

سقى الله الحب ورعاه .. فقد أضحى له فى نفسى منزلتان : الأولى كشىء ممتع يملؤنى بالسعادة عندما يغمرنى كما يغمر كل انسان .. والثانية كمورد رزق أعيش منه ككاتب قصة أحترف الكتابة .

أجل .. اننى افيد من الحب مرتين : مرة عند التمتع به كحقيقة واقعة .. ومرة عند الكتابة عنه كذكريات عابرة . ففى الأولى افيد متعة الحب ، وفى الثانية أفيد لذة الكسب .

انى لأعترف اننى كثيرا ما أصاب بتبلد ذهنى أشعر معه برغبة عن الكتابة .. وأحس بالقلم فى يدى ثقيلا مكسالا .. بطىء الحركة

كأنه السلحفاة ٠٠ واقفا فى مكانه وقفة شتربة ٠٠ وتمر بى الأيام وأنا مضرب عن الكتابة وقلمى معرض عنى حتى يقترب موعد القصة ٠٠ ولا تصبح المسألة مسألة « كيف » بل مسألة واجب ٠٠ لا بد من تأديته ٠

ويضيق بى الحال ٠٠ فالجأ الى الحب وذكرياته استثيرها فى نفسى ٠٠ واوقظها من هجعتها ٠٠ واستاقها كى تستحث القلم المضرب المعرض ٠٠ فاذا بها تفعـــل بى وبه فعـل السحر ٠٠ واذا بالقلم المتخاذل قد اندفع على الورق ٠٠ كأنه فرس رهان ٠

وقبيـل أن ابدأ قصتى هـــذه ٠٠ أحسست بذهنى ذلك التبلد والركود ٠٠ وأمسكت ببضعة صور لفتاة أعطانيها صاحب فنان علها تصلح لبعض القصص ٠٠ وأخذت أقلب فيها البصر ٠٠ ولم أكن أعرف من تكون الفتاة ٠٠ فما رأيتها من قبل ٠٠ وكل ما أعرفه عنها أنها حسناء حاول أن يتخذ منها المصور نموذجا لفنه ٠٠ ورأيتنى اتوقف عند احدى الصور لأمعن البصر فيها قليلا ٠٠ ورأيت الذهن يصحو من غفوته ثم يعود بى القهقرى الى زمن ولى ٠٠ حتى يقف أمام صورة من صور الماضى ٠٠ ما أشبهها بهذه الصورة ٠٠ الملقاة ـ أو المستلقية ـ أمامى ٠٠ لا فرق بين احداهما والأخرى ٠٠ الا أن الأولى من دم ولحم ، والثانية لا تعـدو ظلالا على ورق ٠٠ الأولى صادفتها منذ خمسة عشر عاما فكانت لى ـ فى فترة ما ـ كل شيء ٠٠ كانت الروح ، وكانت الحياة ٠٠ والثانية اقلبها الآن بين يدى ٠٠ فلا أجد فيها اكثر من صورة ، أتصيد بها ذكريات عابرة ٠٠ ذكريات ٠٠ هى كما قال الأستاذ الشناوى (صاحب الخطايا) : « شيبتنى ٠٠ شيبت حتى صبايا » ٠

★ ★ ★

تبدأ القصة فى المدرســة الثانوية الملكية (الخديوى اسماعين

الآن) .. منذ خمسة عشر عاما اى فى حوالى عام ١٩٣٢ وقد جلس الصبية فى أحد فصول السنة الثالثة .. بينما أوشك الجرس أن يؤذن بانتهاء الحصة الأخيرة .. وبدا الصبية قلقين متلهفين على الانطلاق من الحجرة كأنهم أسرى طال بهم الشوق الى أوطانهم ، وقد جهزوا كتبهم ووضعوها بجوارهم على المقاعد ، حتى لا يضيعوا لحظة واحدة فى الفصل بعد أن يقرع الجرس .

قرع الجرس .. وهبت المدرسة كلها فى هرج وطنين كأنها خلية نحل .. وتكأكأ الصبية على الباب يتسابقون الى الخروج كأن بداخل المدرسة من يسوقهم بالسياط او كأنما ينتظرهم خارجها كنز أو وليمة .. فلا يكادون ينفذون من البـاب حتى يتفرقوا شـيعا وأفواجا ، فالبعض الى ميدان لاظوغلى ، والبعض الى شارع خيرت ، والبعض الى ميدان السيدة أو المنيرة .

ودلفت ثلة صغيرة فى شارع خلف المدرسة فى تلك الجهة المعروفة باسم « جنينة رشيد » ، وسار الصبى بينهم وقد انزلق طربوشه على مؤخرة رأسه واخذ يطوح بحقيبته فى يده ويقذف بقدمه كل حصاة او حجر يصادفه ، حتى بدا طرف حذائه من فرط اصطدامه بالحجارة حائل اللون أجرب .

وتوقف الصبية أمام سور حديدى لدار فخمة ، وأخذوا يطلون من خلال السور على الحديقة الغناء .. فقد أثار أعجابهم بعض الورود المتفتحة اليانعة ، وأخذوا يتآمرون على قطفها ، وهموا فعلا بالتسلل الى الداخل ، ولكنهم لمحوا الحارس قداقبل ، فلم يسعهم الا ان يولوا فرارا قانعين من الغنيمة بالاياب .

ولكن الصبى لم يقنع بالاياب ، فقد كان بنفسه لهفة الى الغنيمة ، اذ وجد فى الورود خير وسيلة يتقرب بها الى تلك الصبية الفاتنة التى قطنت حديثا فى الدور الأسفل ، وعاد الصبى الى داره وقد

اخذ يحكم وضع الخطط فى راسه ، وكان أول ما انبأ به أهله هو أنه سيعود الى المدرسة لأن لديهم حفلة فى هذا المساء ، ولم يكد الظلام يخيم حتى انطلق من الدار الى حيث الغنيمة ·

واقترب من السور فلمح الحارس قابعا فى مكانه ، فاستمر فى سيره حتى وصل الى حجر قبالة الدار فجلس عليه يرقب غفلة من الحارس ، ولم يطل به الانتظار فقد أبصره يغادر مكانه ·

ووجد الصبى الفرصة قد سنحت أخيرا ، فقفز من مكانه ودلف من الباب مسترقا الخطا ، واخذ يتسلل فى الحديقة حتى وصل الى الورود وكان القمر قد غمر المكان بضوئه ، فلم يجد صعوبة فى العثور عليها ، واخذ يقطفها الواحدة تلو الأخرى ، حتى أحس فجاة بحركة بجواره فاصابه فزع شديد وتلفت حوله الى مصدر الصوت ، فتصبب العرق باردا من جبينه ، وأحس بارتباك شديد ·

ويحه ! لقد كان هناك من يرقبه منذ أن بدأ سرقته ، لقد أبصر بوجه ساحر افتر عن ابتسامة عذبة فاتنة ، وبعينين ضاحكتين قد اخذتا ترقبانه فى لين ودعة ، وقد اضطجعت صاحبتها فوق الحشائش الخضراء متخذة من ذراعيها العاريتين متكأ تسند اليه رأسها وشعرها الفاحم ·

واضطرب الصبى ، ولكن ابتسامة الفتاة أعادت الى نفسه الطمانينة ، فأبعد عن نفسه فكرة الفرار ، اذ كره أن يبدو أمامها بمظهر اللص الرعديد ، واخذ يجهد رأسه فى عذر ينتحله أمامها كى يبرر به موقفه ·

وأشار لها بتحية خفيفة من يده ، فنهضت متكئة على احدى يديها وردت عليه التحية ، وتكلم هو بصوت هادىء متزن فرجاها ان تتبىء البواب بأنه قد قطف الورود التى طلبها عبد الرحيم بك ، وأنه سيحملها اليه بنفسه ، ثم أعطاها ظهره وانساب الى الباب فى هدوء

وسكون ٠٠ ولم يكد يبتعد قليلا ويختفي عن ناظرها حتى أطلق ساقيه للريح ٠

وبات ليلته يحلم بذلك الوجه الباسم الذى اضطجع على أرض الحديقة والذى ضبطته صاحبته متلبسا بجريمة السرقة ٠ واستيقظ فى الصباح فوجد الوجه ما زال يشغله فى يقظته كما شغله فى نومه ٠٠ وذهب الى المدرسة ٠٠ وتتابعت عليه الدروس ٠٠ وهو لا يفهم كلمة مما يقال ٠٠ فقد كان ذهنه شاردا فى عالم آخر ٠٠ وكانت عيناه لا تبصران سوى صورة الفتاة راقدة تبتسم له ٠

وانتهت الدراسة فتعمد أن يتأخر عن رفاقه ٠٠ حتى يعود وحيدا فقد كانت بنفسه لهفة الى أن يراها مرة أخرى ولكنه لم يلمح لها شبحا فى الحديقة أو فى الدار ٠

ومرت الأيام وصورة الفتاة قد شغلته عن كل شىء ٠٠ حتى عن تقديم الورود الى صاحبته التى قطفها من اجلها ٠٠ وحاول جهده أن يبصرها مرة ثانية ٠٠ ولكن الفشل كان نصيبه حتى بات يخشى أن تكون الفتاة طيفا صورته له الأوهام فى تلك الليلة ٠

وأخيرا ٠٠ رآها ٠٠ على غير ترقب منه أو انتظار ٠٠ وأحس بارتباك شديد ٠٠ وحاول أن يستعيد لنفسه تلك الأحاديث التى كان يعدها ليلقيها اليها فى أول لقاء ٠٠ ولكن كل شىء كان قد تطاير من رأسه ٠٠ وأحس بأنفاسه تتلاحق وخيل اليه أنه قد بات يسمع دقات قلبه ٠

وأخذت الفتاة فى الاقتراب منه وقد تأبطت ذراع صديقة لها ٠٠ وحاول هو أن يقول شيئا ٠٠ ولكنه لم يتذكر أى شىء ٠٠ لقد كان عاجزا عن التفكير ٠٠ عاجزا عن الكلام ٠٠ حتى لكأنه أمام لجنة امتحان الشفوى ٠

وأبصرته الفتاة فبدا عليها أنها قد تذكرته ، فقد نظرت اليه فى

شيء من الدهشة ، ثم وجهت الحديث الى صاحبتها ضاحكة ..
واستطاع ان يسمع من حديثها كلمتين هما : « حرامي الورد » .
اذا لقد اكتشفت الفتاة حقيقته !

ولم يشعر بخجل من تلك الكلمة .. بل على النقيض ، لقد احس بفرحة شديدة .. فقد تبين انها على الأقل ما زالت تتذكره وكأن لسان حاله يكاد يقول :

لئن ساءني أن نلتني بمذمة فقد سرني انى خطرت ببالك

لقد عاد الفتى الى داره وهو يحس بسعادة لا توصف . لقد عرفته الفتاة ، وكان ذلك اكثر مما يتوقع ويتمنى .

ولاحظ أهل الفتى ورفاقه ذلك التبدل الذى طرأ عليه وذلك التحول العجيب الذى بدا فى مسلكه وتصرفاته .. فقد انقلب فجأة من صبى عابث الى فتى رزين متئد .. وكان طربوشه وحذاؤه أول ما تناوله ذلك التبدل والتغيير .. أما الطربوش فقد اقلع عن الانزلاق على مؤخرة رأسه .. وبدأ يستقر فى ميل شديد على أحد حاجبيه .. وأما الحذاء فقد كف تماما عن قذف الحصى والحجارة وعاد اليه لونه ولمعانه وأحس بأن صاحبه قد أضحى « بنى آدم » ، وليس عفريتا من الجن أو شيطانا من الشياطين .

لقد ذاق الصبى ـ أو على الأصح الفتى ـ أول رشفة من رشفات الحب .. وهبت عليه أول نسمة من نسماته .. ولا أظن أن هناك امرأ الا ويتذكر نفسه فى تلك المرحلة التى اخذ يجتازها الفتى .. وأعنى بها مرحلة الحب الأول ، بينما لم يزل بعد فى طور النضج .. حين ينظر اليه الناس فى سخرية واستهزاء اذ لا يرون فيه غير غر حدث .. وطفل ساذج .. ويبادلهم هو نفس النظرة .. فهو يرى فيهم حمقى لا يستطيعون أن يفهموه .. لأن مداركهم اعجز من أن تصل الى ذلك الشعور الذى يحس به ، وأبصارهم أقصر من أن تبصر

تلك العالم المضيء الذى يحيط به ، وهكذا يرى الانسان نفسه بمعزل عن الناس ·· هو لا يفهمهم وهم لا يفهمونه ·· هو فى واديه يهيم وهم فى واديهم يهيمون ·

ومن العبث أن احاول وصف أحوال الفتى ق حبه الأول ، او تحليل مشاعره واحساساته ·· أو ان اسرد محاولاته مع الفتاة لكى يفوز منها بكلمة او بنظرة ، لا سيما ان الفتى ــ رغم تلك الجسارة والجراة التى كان يظهر بها بين رفاقه ــ كان فى حبه من نوع انطــوائى ، يحيط نفسه بسياج منيع من الخجل والحياء ·

ولكنى استطيع ان أعطى صورة واضحة للقارىء اذا ما قلت ان الفتى قد مرت به سنتان منذ أن بدا حبه للفتاة ، وهو يحوم حــول الدار ، عله يلمحها فى نافذة أو فى شرفة او يجدها خارجة فيتبعها من بعد كالكلب الأمين ، ثم يعود الى داره ، فينهمك فى قراءة قصص الغرام كمجدولين وامثالها · ثم ياخذ فى كتابة رسائل الحب التى يسكب فيها عصارة ذهنه وقلبه ، وهو حائر الفكر لا يستطيع ان يعرف موقفه عند صاحبته ، ولا يدرى ان كانت تحبه أو لا تحبــه ·· لأن أحوالها معه غير مفهومة ، وتصرفاتها معه متناقضة متباينة ، فهى قلب حول ·· تبتسم له مرة وتكفهر أحيانا ·· وهو لا يستطيع ان يسالها هل تحبه ، أو هل تفهم معنى الحب ، لأنه لا يدري كيف السبيل اليها ، فلا يجد خيرا من الورق ملجأ ينفس عنه كربته ·· ويقذف فيه بما يجيش به فؤاده ·

واليكم بعض ما كان يكتبه الفتى وهو فى غمرة حبه ·· ففى كلماته خير تصوير لنفسه :

« ليتنى أستطيع أن انفذ الى راسك أو الى قلبك ·· ليتنى استطيع ان ابدد ظلمات الشك والحيرة التى تكتنفنى من كل جانب ·· ليتنى

أعرف فقط أنك تحبينني ·· أنا لا اريد أكثر من ذلك ·· أريد أن أشعر بلذة اليقين والاستقرار ·· آه لو أعرف أنك تحبينني !!·

ولكن هل تعرفين أنت ما هو الحب ؟ ! من يدرى ربمـــا كنت لا تعرفينه ·· وربما كنت تحبينني دون أن تعرفى أن هذا هو الحب ·· دعيني اشرح لك الحب كما احس به ·· لا كما قرأته أو سمعت عنه ·· وسأشرحه لك في أبسط الألفاظ وبأقصر الطرق ·

معنى انى أحبك ·· هو أن رأسى مليء بك ·· حتى لكأن ذلك الشيء الكامن فيه ليس عقلا كبقية العقول ·· بل هو عقـل ممزوج بك ·· لا يستطيع أن يفكر في غيرك ·· أما عيناى فكأني بصورتك قد التصقت بهما ·· حتى بت لا أبصر الحياة الا من خلالك ·· أما القلب ·· فأغلب الظن أنك قد امتزجت بالدماء التى تجرى في أوردته وشرايينه ·· فلو توقفت عن السريان فيه لكف عن نبضه وتعطل عن حركته ·

لا تقولى ان قولى مبالغة عشاق ·· أو مجرد انشاء ·· أو محاولة في الكتابة والأدب ·· لأن ذلك القول هو حديثى الى نفسى ، وليس أصدق من حديث النفس الى النفس ·

انى لأبصرك فأتمنى ألا يتحرك الوقت ، وأتمنى لو أصاب الحياة جمود وركود ، حتى تظلى أمام عينى الى ما لا نهاية ، وقد يزداد بى الطمع في بعض الأحيان فأتمنى لو استطعت أن أحتوى يدك بين يدى ، وأن أحس برأسك يستند الى صدرى ، ثم نغمض أعيننا عن كل ما في الحياة ، ونظل كذلك حتى ينتهى العمـــر ، أو حتى تحين الساعة » ·

هذا بعض ما كان يكتبه الفتى ، مما لو جمع لكان مجلدات ضخمة في الهوى والهيام ·

واخيرا وبعد مضى عامين طويلين ، وبعد طول كتابة وصبابة ٠٠ حدثت المعجزة التى كان يتلهف عليها الفتى وتم اللقاء ٠

لقد عوض الله انتظاره ، وجزى صبره خيرا ، كل الخير ، ففى ذات مساء رآها فى الحديقة . وكان المكان خاليا الا منه ومنها ، وابتسمت له وأشارت اليه بالدخول ، فتسلل كما تسلل منذ عامين ، لا ليسرق الورود هذه المرة ، وانما ليسرق الحب ٠

وغادرها بعد أن أفرغ كل ما فى قلبه ٠٠ وبعد أن سرق كل ما كان يطمع فيه ٠٠ بل أكثر كثيرا ٠٠ لقد سرق منها اعترافا بحبه ٠٠ وسرق قبلة من يدها ٠

ومر على الفتى يومان بعد ذلك ٠٠ شرد فيهما عن نفسه من فرط تلك السعادة التى كان يحس بها حتى حـــدث اللقــاء الثانى ٠٠ والأخير !

الأخير لأن الفتى قد حطم فيه صنمه ٠٠ حطمه وبكى ٠٠ لا بدمع عينيه ٠٠ بل بدماء قلبه ، وعصارة روحه النضرة اليانعة ٠

لقد لقيها ٠٠ فحطم لقاؤها قلبه ٠٠ وندم على هذا اللقاء كما لم يندم على شىء فى حياته ٠٠ وهو الذى كان لا يتمنى شيئا قدر لقائها ٠

لقيها وهو يركب فى عربة صاحب له ثرى مدلل ٠٠ سأله أن يذهب معه للقاء فتاتين تعود أن يقضى معهما ساعات ممتعة ٠ وتمنع الفتى فقد كان يحس أن لصاحبته حقا عليه.وأن فى ذهابه خيانة لعهدها ٠٠ ولكن صاحبه اقنعه أن هذا مجرد عبث لا دخل له فى الحب أو الخيانة ٠

وسارت بهما العربة وهو شارد الذهن ، موجس خيفة من أن تراه فتاته فى موقفه الشـــائن ، حتى أحس بالعـربة تقف ، وبالفتاتين تصعدان ٠٠ فاذا احداهما ٠٠ هى صاحبته ٠٠ بدمها ٠٠ ولحمها !

وسارت العربة وجلست فتاته الى جواره ٠٠ ملاصقة له ، ومع ذلك فقد كان يحس أن بينه وبينها ما بين الأرض والسماء ٠٠ أو ما

بين ابليس والرحمة ٠٠ او كأنه يجلس الى ميت بينه وبينه ما بين الآخرة والأولى ٠

ولم ينبس الفتى ببنت شفة ٠٠ فقد كان يحس بنفسه كأنه شبح بين اطلال ٠٠ أو حطام بين أنقاض ٠٠ ولم تكد تقف فى أول مرور حتى فتح الباب ببطء وتسلل من العربة واختفى بين السابلة ٠

وعاد الى داره ٠٠ وبنفسه ذلك الشعور المرير الذى نحس به عندما نعود الى دورنا وقد وارينا التراب عزيزا لدينا ٠

كم كان جزعه شديدا ٠٠ ولوعته ممضة !

اه لو علم وقتذاك مدى حقارتهن وتفاهتهن ٠٠ واه لو يعلم ان هذا الجنس ليس اكثر من وسيلة للتسلية والترفيه !

اه لو علم هذا ٠٠ لوفر على نفسه الألم واللوعة ٠

ولكنه كان معذورا ٠٠ فقد كان الحب الأول ٠ وكانت الصدمة الأولى ٠

رجـــل طيـب

لقد وجدت الرجل الطيب الكريم اليائس ... المنهار ، الذى انزلت به الصدمة الكبرى .. ولكنه كان فى حالة لا تنبىء عن طيبته ولا كرمه . لا . ولا كان هناك اثر للصدمة التى انزلتها به .

كانت تشعر بانها تمر بتجربة عسيرة ، وان المشاعر تصطرع فى جوفها وتصطخب ، انها باتت أشبه بريشـة فى مهب ريح هوجاء عاصفة عاتية .

ترى كيف هبت عليها الرياح فزلزلت حياتها الهادئة وعصفت بنفسها الراضية القانعة المستقرة ؟ بدات الريح طيبة حنونا كالنسمة الرقيقة الناعمة لا تنبىء بخطر ولا تنذر بشر .. فأمنت لها واطمانت اليها ، وتركت نفسها تستمتع بهـا فى دعة واستسلام ، حتى بدات الريح تشتد وتعصف وتجرفها فى سبيلها فاذا بها شاردة تائهة ضالة هائمة .

كانت أول تجـربة تمر بهـا ، تجـربة شـاقة مرهقة ،

وهى التى تعودت الهدوء والاستقرار منذ نعومة أظفارها ، ولم تكن تعرف عن الحياة الا أنها موكب يسير وصورة تتكرر ..!

انها تتذكر حياتها مع أبويها عندما كانوا يقطنون فى دارهم بمصر الجديدة ، وعندما كانوا يتمتعون بحياة هادئة هانئة لا يشوب صفوها كدر ، وكان أفق حياتها لا يكاد يتعدى البيت والمدرسة ، ومن آن لآخر سهرة فى احدى دور السينما أو زيارة لأحد الأقارب أو الأصدقاء برفقة أبويها .

كانت سعيدة بغرفتها الصغيرة التى لا يشاركها فيها أحد ، وكانت دائمة الترتيب لدولابها الصغير الذى حوى بين جدرانه جميع ممتلكاتها من دمى قديمة وملابس وكتب ، سعيدة بكل شىء .

وكانت سعيدة بأبويها الرقيقين الطيبين الحنونين اللذين لا يرفضان لها طلبا ولا يخيبان لها رجاء . سعيدة بالدار النظيفة الأنيقة والحديقة المورقة المزدهرة .. سعيدة بمدرستها التى لا تكاد تبعد عن الدار أكثر من مسيرة بضع دقائق . سعيدة برفيقاتها ومدرساتها فى المدرسة .

كانت بطبيعة خلقها ونشأتها هادئة الطبع شديدة القناعة ، فلم تحاول قط أن تتطلع الى أكثر مما وهبه الله لها ، وأراحها هذا الهدوء وتلك القناعة وشغلتها تواقه الحياة ومتعاتها البسيطة السهلة عن التطلع الى مطالب المشاعر المرهفة ورغبات النفس الحساسة .

علمتها أمها أن على المرأة الا تحب الا بعد أن تتزوج ، فكفت نفسها مئونة التشوق والتشوف ، وكفت نفسها شر الرجات القلبية والزلازل العاطفية ، وباتت تنتظر فى هدوء وفى غير تعجل ولا قلق ، وتنعم بحياتها المدرسية والمنزلية حتى يحين اليوم الموعود ، ويتقدم اليها الزوج الذى يجب أن تحبه .

ولم يتأخر اليوم كثيرا ، ولم يطل بها الانتظار حتى تقدم الزوج .

انها تذكره جيدا ·· فى يوم من أيام الخريف اللطيفة الجو ، ولم يكن قد مضى سوى بضعة أيام على بداية العام الدراسى ، وقد عادت من المدرسة وقذفت بحقيبتها على أحد المقاعد ثم استلقت بملابسها على الفراش فى تكاسل واسترخاء ، عندما اقبلت امها تستنهضها وتسالها أن ترتدى ثيابها بسرعة استعدادا لاستقبال بعض الضيوف ·

وبدلت ملابسها وأخذت تعد حجرة الصالون لاستقبال الضيوف فوضعت الزهور فى الزهريات وأعدت المرطبات ، ولم تكد تنتهى من اعدادها حتى أقبل الزائرون وكانوا عائلة صديقة ، بصحبتهم رجل غريب ·

وكان الرجل الغريب هو طالب الزواج ، أو الزوج المنتظر ·

أجل ·· لقد أدركت حقيقته بوحى احساسها !

ان أمها لم تفصح عن شيء ولكن الحاحها فى ان تعتنى بهندامها وفى أن ترتدى حليها كان الحاحا يبعث على الشك ·

والرجل الغريب نفسه ، ونظراته المسترقة من آن لآخر جعلها تجزم فى نفسها أن فى الأمر شيئا ·

ومضت بضعة أيام ·· ثم وضحت الحقيقة ، وسالتها امها عن رأيها فيه ، لأنه قد تقدم لخطبتها ·

وعرضت امامها مؤهلاته ، فكانت جمة ·

كان مدرسا فى الجامعة يحمل شهادة الدكتوراة ، وكان شابا لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ذو مستقبل باهر ، كريم المنبت ، طيب العائلة ، له من الأملاك ـ غير مرتبه ـ ما يجعله فى بسطة من العيش·

وهكذا لم تكن به اية علة ولا هنة من حيث الموضوع بل كان يعتبر زوجا نموذجيا ·

اما من حيث الشكل ، فقد كان عاديا ·

لم يكن قبيحا ولا مشوها ، ولم تكن العين تستطيع ان تلمح به

شيئا مميزا ، جميلا كان أم قبيحا ، بل كان ممثلا للشكل العادى الذى يمكن أن تبصره فى آلاف الموظفين والمدرسين والكتبة والتجار ، والمصريين عامة !

كان أميل الى القصر والامتلاء ، ولكنه لم يكن قصرا معيبا ولا امتلاء مشوها ، وكان يضع على عينيه منظارا ، ولم يكن هذا بالشيء الغريب ، فثلاثة أرباع من فى مثل سنه ومركزه يضعون على أعينهم منظارا ٠

كان الرجل مقبولا شكلا وموضوعا ٠

ولم يكن هناك مبرر لأن تقول ـ حتى فيما بينها وبين نفسها ـ لا ٠

حقيقة انه لم يكن هناك أية صلة ولا شبه بينه وبين ذلك المخلوق الكائن فى أفق أحلامها ٠ ذلك المخلوق الذى تجسده لها قصص الهوى وأحلام الدجى ٠

وحقيقة انه لم يكن جميلا ، فارع الطول ، ممشوق القوام كأبطال الشاشة البيضاء ٠٠

ولكنها لم تكن من الغباء بحيث تتصور أن هذا الشيء كائن فى الحقائق ، وأن عليها أن تنتظر حتى يقبل ذلك المخلوق من أفق الأحلام !

كانت قناعتها ، وهدوء طبعها ، وحسن تربيتها ، تجعلها تؤمن بالواقع ، وتدرك بسهولة أن هذا الرجل المتقدم اليها يمكن أن يكون زوجا صالحا محترما ، وأنها يجب أن تقبله حامدة قريرة ، وأن تشكر الله على نعمائه وفضله ٠

وقالت نعم ٠٠ لأنها لم تستطع أن تقول : لا ، فما كانت تجد لها مبررا ، وما كانت من الجنون بحيث تقول انها كانت تفضل أن يكون أطول قامة ، وأوسم وجها ، وأرشق قدا ٠

وخيرا فعلت ·· فلقد اثبتت لها الأيام التى مرت بعد ذلك أن القدر قد اكرمها ، وانها لم تخطىء قط بقبول الرجل زوجا ·

كان رجلا رقيقا مهذبا ، رضى الخلق ، هادىء الطبع ، ولم يكن هذا الخلق الرضى بالشيء المفتعل المتصنع الذى يتكلفه الرجال فى أيام الخطبة ، والذى سرعان ما يتبدد عندما يصبحون أزواجا ، فينقلب هدوءهم غضبا ، ورقتهم فظاظة ولينهم غلظة ·

وبدأ حياتهما الزوجية ، وانتقلت الى بيتها بالدقى مكرمة معززة ، واقبل عليها زوجها اقبال محب عطوف ، واحاطها بعنايته المفرطة ·· مدركا أنها شيء ثمين يستحق الرعاية والعناية ·

ولقد كانت كذلك فعلا ، اذ هيأت له زوجة مثالية ·· ولم يكن جمالها وثقافتها ليمنعاها من أن تكون سيدة بيت ومن أن تقوم بالطهى والنظافة وأن ترعى شئون زوجها تماما كما كانت تفعل امها ببيتها وبابيها ·

وهكذا سارت بها الحياة الهوينا ، جاعلة من كليهما ·· هى وزوجها ·· نموذجا لزوجين سعيدين راضيين قانعين ·

حتى بدأت الريح تهب ·

وكان مصدرها ذلك النادى الرياضى الذى اشتركا فيه ·

كانا سعيدين بالاشتراك به فى أول الأمر ، فقد كان خير مكان يمكن أن يقضيا فيه وقتهما برفقة ثلة من زملائه وزوجاتهم ·

ولم يكن النادى يبعد عن البيت كثيرا ، وكانت حديقته المتسعة المترامية الأطراف وشرفته المشمسة تعوضهما خيرا عن شقتهما البحرية التى لا تدخلها الشمس ·

ولقد بدأ ذهابهما الى النادى فى أول اشتراكهما معا ، فقد كان يصطحبها برفقته بعد الظهر فتجلس هى للتسلى بالحديث مع بعض الصديقات أو بعمل التريكو ان لم تلق احداهن ، ويأخذ هو فى لعب

التنس ، وبعد الانتهاء من اللعب يجلسان معا لتناول الشاى وقضاء السهرة فى السمر مع الأصدقاء او يذهبان الى احدى دور السينما ٠

هكذا كان برنامجهما اليومى ٠٠ حتى انشأ لنفسه مكتبا للعمل الحر ، فشغل وقته معظم أيام الأسبوع بعد الظهر ٠

وكان يكره ان يتركها وحيدة طول اليوم ، فوجد أن خير طريقة لتسليتها هى اصطحابها الى النادى وتركها فيه حتى يعود اليها بعد الانتهاء من العمل ٠

وبدأت ايام الشـــتاء الأولى تمر دافئـــة ممتعة ، وبدأت هى معرفتها به ٠

كان زميلا لزوجها ، سبق ان جلس فى شلتهما بضع مرات من قبل ، ولكن معرفتها به كانت معرفة سطحية غير وثيقة ٠

ولقيها وحدها فى اول يوم فحياها فى أدب واستأذنها فى الجلوس فاذنت له ٠٠ ثم سألها لم لا تتسلى بلعب التنس ، فأنبأته أنها لم تلعبه من قبل ٠٠ فقال لها انها يجب ان تحاول لعبه وعرض عليها ان يقوم بتدريبها ٠

وكانت تعلم انه احد أبطال التنس المعروفين ٠٠ ولكنها اعتذرت فقد خشيت ان يضايق هذا زوجها ٠

وعندما عاد زوجها عنـد انتهائه من العمـل ٠٠ جلس الثلاثة يتناولون الشاى ٠٠ وقال صاحبنا مازحا :

ــ يا محمود بك ٠٠ لقد عرضت على ليلى هانم ان أعلمها التنس مجانا ٠٠ فرفضت ٠

وأجاب محمود بك :

ــ انها مخلوقة مكسالة ٠٠ من الذى يرفض ان يعلمه على عزت بطل التنس ؟ لا ٠٠ لا ٠٠ يجب ان تتعلمى يا ليلى بدل الجلوس هكذا

تشتغلين بالتريكو كالعجائز ٠٠ انى أريدك أن تكونى شريكة لى عندما تبدأ المباريات الزوجية ٠

وفى اليوم التالى بدأت التدريب ٠

وبدأت تستمتع بالريح الطيبة الحنون تهب كالانفاس الناعمة الرقيقة ٠٠ لا تنبىء بخطر ولا تنذر بشر ٠

كانت تستمتع باللعب وبالصحبة ، وبالشمس الدافئة ، وباليوم الجميل ، ولم تحاول أن تمنع نفسها من الاستمتاع ٠٠ فما كانت تدرك أن وراء الريح الهادئة زوبعة عاصفة عاتية ، وان وراء الاستمتاع اندفاعا واقتلاعا ٠

ان شر ما فى هذه التجارب أنها تبدأ هادئة رقيقة ، وانها تتسلل إلى النفس تسلل النوم الى الجفون ، لذيذة ممتعة ، غلابة مسيطرة ٠٠ لا يملك لها الانسان دفعا ، ولا لسلطانها ردا ٠

كانت تستمتع باللعب وبالصحبة ، سليمة النية ، طيبة القصد ، ولم يخطر ببالها انها كانت تندفع الى مغامرة ، وتساق الى شر تجربة يمكن أن تساق اليها امرأة متزوجة ٠

ولقد قلت انها متينة الخلق ، حسنة التربية ، شديدة القناعة ، وأنها ٠٠ وأنها ٠٠ من كل محمود الصفات التى يمكن أن تخطر على بال ٠

ولكن هل تستطيع كل هذه الصفات الطيبة أن تصمد أمام التجربة اذا ما استطار شرها ، واستشرى خطرها ، واستفحل داؤها ؟

لا تقولوا ٠٠ نعم ٠

لا تكونوا حمقى ٠٠ فتلقوا القول على عواهنه ٠

متزوجة أو غير متزوجة ، طيبة أم فاسدة ، سعيدة فى بيتها أم غير سعيدة ، ان هذه التجارب اذا ما وقعت اودت بالطيب والخبيث

والشقى والسعيد ، وجرفت فى طريقها كل شيء ، غير عابئة بتقاليد او اصول أو أوضاع ٠

ان التجربة تبدأ سهلة هينة لا تنبيء بشر حتى يحاول الانسان تجنب شرها ، ولا تنذر بخطر حتى يحاول أن ينجو من خطرها ، فاذا ماحل الشر ووقع الخطر ٠٠ جرف امامه كل مقاومة وسحق كل محاولة للنجاة ٠

لقد امتعتها اللعبة والصحبة ، لعبة التنس ، وصحبة المدرب ، وزاد الاستمتاع حتى خرجت المسألة عن مجرد الاستمتاع ، وأصبح الأمر شيئا حيويا ضروريا ، وانقلبت لعبة التنس الى اللعبة الشائكة الهوجاء المسماة بالحب ، ولم يعد المدرب شريك اللعبة فحسب ، بل شريك الروح وأنس الحياة ٠

وبدأت تحس بقسوة التجربة وبخطورة الأمر وحيويته ٠ وبأن الريح الهادئة قد اشتدت وباتت رياحا هوجا لا تبقى ولا تذر !٠

وبدأ النضال الخفي بين الضمير والرغبة ٠٠ بين القلب والعقل ٠٠ وزاد النضال قسوة وعنفا طبيعتها الرزينة وعقلها الهاديء المتزن ٠٠ فقد كان يمكن للتجربة أن تمر بسهولة لو انها جبلت على غير ذلك الخلق الطيب والتربية القويمة ٠٠ ولو انها كانت مستهترة مخادعة نزقة طائشة ٠

وحاولت المقاومة فى الظاهر وفى الباطن ، اما محاولات الظاهر فلم تجد نفعا ٠٠ فقد حاولت سدى أن تقلع عن الذهاب الى النادى ، وحاولت التملل أمام زوجها بشتى الأعذار ولكنه كان يصر على أن تذهب ٠

أما محاولات الباطن ٠٠ فقد ذهبت كلها أدراج الرياح ٠

كان القلب جامحا بعد أن طال به السكون والركود ٠٠ وكان

عسيرا عليه أن يرى صنو النفس الذى طالت وقفته فى أفق الأحلام فيعرض عنه وقد أقبل عليه وأضحى حقيقة واقعة ٠

أجل ٠٠ لقد كانت الكارثة فى أن فتى الأحلام قد أقبل متأخرا بعد أن ارتبطت بسواه وشدت الى غيره ٠

وأخيرا صممت على أن تضع حدا لذلك النضـال ، وأن تتخذ اجراءا حاسما ٠

انها تحترم زوجها وتجله ، وتربأ بنفسها أن تلوث عرضه وهى تكره الخيانة والخديعة ، ولذلك فيجب أن تختار بين أحدهما ٠٠ اما مالك الجسد ، واما مالك القلب ٠٠ اما الزوج ، واما الحبيب ٠

وغادرت الدار ذات صباح بعد أن أنبأت زوجها أنها ستقضى اليوم بطوله عند أمها لأن بها وعكة ٠٠ وذهبت الى صاحبها لتنبئه علام استقر رأيها وأيهما ستختار ، هو أو زوجها ٠

والتقت به فى داره حيث كان ينتظرها فى لهفة ٠٠ فأنبأته أنهـا قد اختارته هو ، وأنها ستنبىء زوجها بصراحة بجلية الأمر وتسأله الطلاق ٠٠ وغادرته عائدة الى دارها ٠٠ وطال بها الانتظار دون أن يعود زوجها ، فدفعها القلق الى الذهاب الى مكتبه ، وكانت تعلم أية صدمة قاسية توشك أن توقعها به ، ولكنها كانت تعلم أن عملها هذا خير بكثير من الخديعة والخيانة ٠

ووصلت الى المكتب ودقت الجرس ، وبعد لحظة كان زوجها يقف أمامها فى دهش وذهول ٠

كانت أول مرة تزوره فى مكتبه ، وخشى أن يكون قد أصاب أمهـا مكروه ٠٠ فسألها منزعجا :

ــ أأصاب والدتك شىء ؟٠

ــ لا ٠

ــ اذن ما بالك مضطربة هكذا ؟ ٠

ـ أريد أن أفضي اليك بشيء ٠

ـ الآن ! ٠

ـ أجل الآن ٠

ـ الا يمكن تأجيله حتى نعود الى البيت ؟

ـ من الأفضل أن ننهيه الآن ٠

ـ أهو من الأهمية بمكان ؟

ـ نعم ٠

وقادها الى حجرة المكتب وأغلق الباب وما زالت علائم الدهشة مرتسمة على وجهه ، ولم تكد تستقر على مقعدها حتى صاح متسائلا:

ـ حدثيني عما بك ٠

وبصوت خافت حدثته ، عما جاءت لأجله ٠٠ والقت اليه بغيبته نفسها ٠

وجلس ينصت اليها في ذهول ، وقد اتكأ على المكتب مطرقا برأسه في يأس شديد ٠

واخيرا كفت عن الكلام وساد الحجرة صمت عميق ٠

وبعد برهة قال بصوت خافت متهدج :

ـ انت مجنونة ٠٠ طائشة ٠

ـ لست مجنونة ولا طائشة ، ولكنني لا أريد أن أخونك أو أخدعك لأني أجلك وأحترمك ٠

ـ ألا تمنحين نفسك فرصة للتفكير ؟

ـ لقد فكرت كثيرا ٠٠ انى لم افعل ما يجعلني أخجل حتى الآن ولا أريد أن أفعله أبدا ٠

وهز الرجل رأسه ببطء ، وقال وهو يحاول التمالك والتماسك :

ـ لك ما تشائين ٠

ونهضت من مقعدها وغادرت الحجرة ٠

وفى الطريق بدأ الضمير يثقل ضرباته ، وبدأت تحس ثقل الصدمة التى انزلتها بالرجل الذى بذل كل ما يملك لاسعادها ·· والذى وهبها البيت الهادىء والحياة المستقرة ·

وتصورت حاله الذى تركته عليها وانهياره ويأسه ، فازداد بها الندم ، وتمنت لو تستطيع أن تخفف بعض عبئه ، واحست بأنها كان يجب عليها أن تضحى من اجله ، وأن تقاوم رغباتها ونزعاتها ·

وبلا وعى ولا ارادة وجدت نفسها تعود القهقرى ·· لتسأل زوجها المغفرة وترجوه العفو ، وتنبئه انها قد صممت على ان تقهر قلبها وتطلب منه أن يساعدها على الخلاص من حبها ·

وكانت واثقة أنه سيقدر وسيغفر ·· فهو طيب كريم ·

ومرة ثانية وقفت بباب المكتب ، ووجدت انها لم تغلقه وراءها جيدها فقد انفتح امام دفعتها ·· ودخلت المكتب ولم تكد تخطو بضع خطوات حتى وقفت مشدوهة ذاهلة ·

لقد وجدت الرجل الطيب الكريم ·· اليائس المنهار ·· الذى انزلت به الصدمة الكبرى ·

ولكنه كان فى حالة لا تنبىء عن طيبته ولا كرمه ·· ولا كان يائسا ولا منهارا ·

لا ·· ولا كان هناك اى اثر للصدمة التى انزلتها به ·

كل ما وجدته قد زاد عليه هو امرأة بين أحضانه ·

حقا ·· انها كانت مجنونة ·

لقد أدلت اليه باعترافها أول مرة والمرأة مختبئة فى احدى الحجرات · لقد كان مكتبه مأوى لرفيقته ·

لعنة الله عليها ·

كان خيرا لها أن تفعل كما يفعل ·· فلا تفضح نفسها ·· بل تبدو امامه كما يبدو امامها طيبا كريما ·

رجـــل آثــم

الحمد لله على أنه لا يعرف أوصاف الآثم الأول ..
لقد كان لا بد من نهايه .. والا .. من يدرى فقد تتنبئه
عجوز النحس بها وتكون الطامة الكبرى .

بدأ القطار سيره ، وأخذت الوح لبضعة الاصدقاء الذين حضروا لتوديعى حتى اختفوا عن ناظرى وسط الزحام . وغادرت النافذة عائدا الى مقعدى .

وكان أول ما فعلت هو أن ألقيت نظـرة عجلى على رفاقى فى السفر . وبؤت من النظرة بخيبة رجاء . فما رأيت بين الوجـوه المرافقة التى ساكره على صحبتها ثمانى ساعات متوالية وجها يغرى بالنظر ، ويزيل وحشة السفر ، ويقصر طول الرحلة . ومع ذلك فلم أشعر بكثير أسف ، أولا لأنى قد تعودت على هـذه الخيبة فى كل سفر . وثانيا لأن الديوان لم يكن مزدحما بل كل من به لا يزيدون على أربعة : أنا وثلاثة آخرون .. وهكذا اطمأننت الى سفرة مريحة أستطيع خلالها ان أمد ساقى على المقعد المواجه وأن أستغرق فى نوم عميق .

وبدأت اتصفح الجرائد والمجلات التى وضعتها بجوارى حتى احسست بالخمول يدب فى جسدى فالقيتها جانبا ثم اسندت رأسى فى تكاسل الى الوراء واغمضت عينى فى شبه اغفاءة ·

واخذت انصت لطرقات القطار المنتظمة التى يحدثها فى اثناء سيره · وشرد بى الذهن فى توافه الحياة ، فاستعرضت ما فعلت فى يومى وما سافعله فى الغد ، ثم اختلطت الافكار فى رأسى حتى انعدمت قدرتى على التفكير ورحت فى سبات عميق ·

لم تكن الساعة تزيد على الثامنة · فالقطار قد بدأ تحركه فى السابعة والنصف · ولا اظن تشاغلى بالنظر الى رفاقى فى الديوان او انهماكى فى قراءة الصحيفة ، قد استغرق اكثر من نصف ساعة ، ومع ذلك فقد هاجمنى النعاس سريعا من فرط ما اجهدت جسدى خلال اليوم · ولانى لم اجد حولى ما يستحق اليقظة ·

واذا نام المرء واستيقظ فجاة فانه لا يكاد يشعر انه قد نام ولا يستطيع ان يقدر طول الوقت الذى استغرقه فى النوم بل يخيل اليه انه لم ينم ·· وهكذا احسست عند ما استيقظت فجاة على صوت طلق نارى يدوى فى اذنى · وهببت من مقعدى فزعا مرتاعا لاجد الرجل الجالس بجوارى يفحص مسدسا فى يده ثم يضعه فى جيبه باطمئنان وارتياح · واجد احد الرجلين الجالسين فى مواجهتى مستغرقا فى سباته ، اما الرجل الآخر فلم يكن باقل منى دهشة · اذ رأيته يحملق فى الرجل صاحب المسدس ، وقد بدت عليه سيماء من اوقظ فجاة فزعا مرتاعا ·

ونظرت الى الساعة فاذا بها الحادية عشرة ·· وادركت ببساطة انى قد قضيت فى سباتى ما لا يقل عن ثلاث ساعات وكان القطار

معنا في سيره دون أن يبدو من النافذة اى اثر لأضواء او علامات مميزة تدل على المكان الذى نمر به ، بل بدا لى كأن القطار يطوى اكداسا من الظلمات ·

وخيم على ثلاثتنا صمت لم يكن يشوبه سوى طرقات عجلات القطار المتتالية المنتظمة كأنها دقات الساعة ·· وكان صمتنا مشوبا بقلق وتساؤل وتوتر فى الأعصاب · واخذت اقلب البصر بين الركاب فرايت الرجل الجالس قبالتى يعود الى تراخيه ويمدد ساقيه ويلقى براسه الى الوراء ثم يغمض عينيه دون أن ينبس ببنت شفة وكأنما الأمر لا يعنيه فى شىء او كأنه مفروض على ركاب القطار ان يتسلوا باطلاق النار من مسدساتهم ·

ولم استطع انا بالطبع ان افعل كما فعل الآخرون ، فاتمطى فى مقعدى بهدوء واعود الى سباتى ·

من يدرينى أن صاحب المسدس ليس مجنونا ؟ وأن الطلقة الآتية ستستقر فى جوفى بدلا من أن تنطلق طائشة من النافذة ؟

··· لا ·· يجب أن أكون حريصـــا والا اترك الرجـــل يعبث بمسدسه ، أو على الأقل اطمئن نفسى بالاستفسار عن سر هذه الطلقة التى اطلقها ·

وكأنما احس الرجل بقلقى وبأن عينى تحملقان فيه وتطلبان منه تفسيرا · فقد التفت الى وهز راسه مشيرا بالتحية ثم قال وهو يضع يده على جيبه :

ـــ مسدس جيد ·

ولم اعرف كيف اجيبه · فانا لم افحص المسدس حتى اعرف اذا كان جيدا ام لا · ولا اعرف كيف ينوى استعماله · ولا اذا كان من صالحى ان يكون جيدا ام غير جيد · ولكنى تجنبا لكل ما يثير الرجل لم استطع الا ان اوافقه بهزة من راسى وانا اقول :

ـ يبدو كذلك ٠

ـ لقد اشتريته منذ مدة قصيرة لغرض خاص ٠ انى لم أمسك في حياتى مسدسا قبل الآن ، ولا كنت اعرف كيفية استعماله ، بل كنت أخشى الاقتراب منه ٠ ولكن الظروف أجبرتنى على ابتياعه حتى أنهى به مهمتى ٠

ـ تنهى به مهمتك ؟

ـ ساقتلهما به ٠ لا أظن المهمة ستكون شاقة ٠٠ حقيقة أنى لا أجيد النشان ، ولكن المسألة لن تحتاج الى ذلك ٠ فلن أحاول اصابة الهدف من بعد ٠ لن يكون بيننا أكثر مما بينى وبينك ٠ هكذا ٠

ورأيت الرجل يخرج مسدسه من جيبه ثم يضع فوهته بمنتهى البساطة ملاصقة لمعدتى ٠٠ ويواصل حديثه :

ـ أجل ٠٠ لن تكون المسافة بيننا أبعد من هذا ٠ هل تظننى أخطىء ؟

واحسست برجفة وأنا أبصر فوهة المسدس تلامس جسدى ، وخشيت ان أتيت بحركة بها شىء من العنف ، أو صحت بالرجل ناهرا اياه ، ان تخرج الطلقة من المسدس وأردى صريعا ٠٠ ففضلت أن آخذ الرجل باللين وقلت له مؤكدا :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ انك لن تخطئه أبدا ٠ فقط أرجوك أن تبعد فوهة المسدس عن معدتى لأنها تسبب لى مغصا ٠

وصاح الرجل مقهقها :

ـ لا تخف ٠ ان سقاطة الأمان فى موضعها ٠ أنظر ٠ مهما ضغطت على الزناد فلن ينطلق ٠

وضغط الرجل على الزناد وهو ما زال مصوبا الفوهة الى معدتى، ولم تكن هناك فائدة من الصياح أو الهرب ، وكل ما كنت أستطيع

فعله هو الاستبسلام · ان الرجل لا شك مجنون ولن تجدى معه سوى السياسة ·

وحمدت الله ان جعل الزناد لا ينطلق فعلا ·· وحمدته كذلك ان جعل الرجل يعيد مسدسه أخيرا الى جيبه ·

وتنفست الصعداء ، وقلت للرجل :

ــ امصمم أنت على قتلهما ؟

ــ اجل · كما قتلا ابنتى ·

ــ قتلا ابنتك انت ؟

ــ اجل ابنتى انا · لقد تآمرا على قتلها ، وراحت المسكينة ضحية نذالتهما وجبنهما ·

وبدت على وجه الرجل علامات الحقد والغضب ·· ورأيت مقلتيه تغرورقان بالدموع ، وبدا لى كأنما هو جاد فيما يقول ·

وسواء كان جادا أم لم يكن ، فما كنت املك الا موافقته فمددت يدى وأخذت أربت على كتفه وقلت له فى عطف ظاهر :

ــ هدىء نفسك وحاول أن تنام واسترح قليلا ·

ــ انام ! لقد مضى على عشرة أيام وأنا لا أعرف طعم النوم ·· منذ أن واريتها الثرى لم يغمض لى جفن ولم يهدأ لى بال ·

ــ ولكن أواثق أنت من أنهما قد قتلاها ··؟

ــ اتظننى كنت أصر على قتلهما اذا لم أكن واثقا ؟

ــ ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم لا تبلغ أمرهما للقضاء وتتركه يقتص لك دون أن تعرض نفسك لعقوبة القتل ؟

ــ القضاء ؟ لا ·· لا ·· انا لست ابله · ان ابلاغ القضاء لن يعنى سوى الفضيحة لى ولها · اما هما فلن يستطيع القضاء ان يثبت عليهما شيئا ، وان اثبت فلن يكون لجريمتهما عقاب ·

ــ اذا ثبت انهما قتلاها فلن يكون لجريمتهما عقاب ! ؟

ـ أجل ٠٠ أمام القانون ٠ لا عقاب لهما ٠

ـ لست افهمك جيدا ٠

ـ لكى تفهمنى جيدا يجب ان تفهم الحادثة جيدا ٠

كنت ذات يوم اجلس فى دارى٠٠ وأنا اقطن فيها مع ابنتى وخادم عجوز تدعى أم احمد ٠ ترعى أمورنا منذ أن توفيت زوجتى ، وكنت أعلم أن ابنتى خرجت مع الخادمة منذ الصباح لقضـــاء بعض الحاجات ، وكنت أتوقع أن تعود الى الدار قبيل الغداء ، ولكن موعد الغداء حل دون أن تعود ٠ وزاد بى القلق عندما انقضى اليوم وهى ما زالت غائبة ٠ حتى دقت الســاعة السادسة فاذا بى أسمع وقع اقدام أم احمد وحدها وهى تصعد الدرج بطيئة متثاقلة ، واقبلت عليهـا أسالها فى لهفة عن ابنتى فرايت وجههـا شـاحبا وعينيها محمرتين وانباتنى فى صوت متهدج أنها قد أتت لاخذى اليها ٠٠

وكانت المراة فى حالة اعياء شديد ، ولم أستطع ان أستفسر منها عن حقيقة ما حدث ، ولكنى توقعت ان يكون قد حدث لابنتى حادث تصادم وأنهم حملوها الى احد المستشفيات ٠

وانطلقت مع المراة فى احدى عربات الأجرة وسالتها عن اسم المستشفى الذى وضعوها فيه ، فانباتنى أنها ستقودنى الى هناك ٠

وهكذا أخذت المراة تقود السائق وتعـرج به يمنة ويسرة حتى وجدت نفسى فى شارع محمد على قرب القلعة ٠ ثم عرجت بنا العربة فى أحد المنعطفات وظلت تتجول بين الأزقـة والحارات وأنا حائر دهش ، حتى وقفت بنا أمام بيت حقير تفوح منـه رائحة العفونة وتتراكم على بابه أكوام القمامات ٠ وقالت المراة :

ـ انها هنا ٠ تعال ٠

ولم أملك الا الانصياع ٠٠٠ فدخلت أتعثر وراءها ، أخوض وسط القمامات ، واتخبط فى الدرج الحجرى المتآكل ٠

ودفعت المرأة بابا خشبيا ودلفنا الى صالة رطبة معتمة لا يبدو فيها اثر لأثاث ·· ثم عبرناها الى حجرة في الناحية المقابلة للسلم ·· وهناك أبصرت ما صرعني وسلبني رشدي وافقدني صوابي ·

وجدت ابنتي مسجاة على فراش قذر وقد اغمضت عيناها وشحب وجهها وبجوارها كومة من الملاءات مغرقة بالدماء والفراش نفسه قد تناثرت فيه بقع الدم الأحمر ··

كل شيء في الحجرة كان ملونا بالدماء ·

وأحسست كأني أوشـــك أن أهوى الى الأرض ·· وصرخت كالمجنون :

ــ ما هذا ؟ وما الذي اتى بها الى هنا ؟

وانبرت لي عجـوز شمطاء من اقصى الحجرة تسعى كالحيـة الرقطاء وانبأتني أنها هي التي أتت بقدميهـا ·· وأنهـا هي التي سألتها الاجهاض ·· وأنها غير مسئولة عن شيء ·· فهذا قضاء الله · ولا راد لقضائه ·

اجهاض ؟ ! كيف ؟!·

ونظرت الى أم أحمد متسائلا وأنا أكاد أجن ·· فهمست المرأة في صوت خافت :

ــ لا داعي لكل هذا الآن · ليس هذا وقته · الأفضل أن نحملها الى البيت ·· ربنا أمر بالستر ·

ولم يكن أمامي سوى الرضوخ ، فلا اقل من الستر على البنية العزيزة !·

ولففناها في ملاءة نظيفة وحملناها الى التاكسي واوصلناها الى البيت ·

وفي البيت فاضت روحها ·

وهكذا تمت الوفاة بلا فضيحة وانعم الله علينا بالستر فى اللحظة الأخيرة .

وواربنا الجثة التراب .. وتلقيت التعزيات وأنا بادى الهدوء ، ظاهر الصسبر . ثم عدت اخيرا الى البيت وقلبى يغلى بالثورة ويصطخب بالحقد .

كيف حدث ما حدث ؟ من المسئول ؟

وامسكت بأم احمد استجوبها واضيق عليها الخناق . حتى بدأت تفضى الى بالحقيقة .. وانبأتنى انها لاحظت علامات الهم والقلق بادية على الفتاة ، وانها اقبلت عليها ذات يوم فانبأتها انهـا تشعر بغثيان وميل الى القىء ، وفزعت المراة . فقد ادركت أن ما بالفتاة علامات حمل ، وكانت تحبها كابنتها . فحاولت أن تستدرجها لتعلم منها الحقيقة الواقعة . ولكن الفتــاة رفضــت وقالت أن أمرها لو افتضح فستلجأ الى الانتحار .

ولم يكن هناك بد من انزال الحمل ، واخذت المراة والفتاة يتدبران الأمر معا فانبأتها الفتاة انها تعرف طبيب ولادة كان دائما يحاول مغازلتها وهى تمعن فى صده ، وهى لا تشك فى أنها لو ذهبت اليـه فسينقذها مما بها ويتستر عليها .

وفعلا ذهبت الفتاة والمراة الى الطبيب فى بيته مبالغة فى التستر. والتقت الفتاة بالطبيب ، فأدهشه أن تحضر اليه فى داره وهى التى طالما أعرضت عنه وصدته .

وكان من العسـير عليهـا ، وهى المتكبرة المعتزة بنفسها ، أن تعترف بزلتها لهذا الذى طالما احتقرته وترفعت عنه ، وأن تسـاله المعونة والانقاذ .

وجلست فى كبرياء وأنفة تنبئه انها تحس بغثيان وميل الى القىء ، ودهش الرجل من قولها واستطاع بنظرة فاحصة أن يفهم فيم مجيئها

له وأن يدرك مدى حاجتها اليه ·· فصمم على اذلالها وعزم على أن يأخذ الثمن ·

وبمنتهى البرود قال لها :

ـ هذه اعراض حمل ؟

ـ اجل ·

ـ اذن فانت حامل ؟

ـ اجل ·

وكنت تصدينني وتدعين الشرف والكبرياء والعفة !

ـ وما زلت ، بالنسبة لك ·

ـ اذن لم اتيت الى ؟

ـ لتجرى لى العملية ·

ـ عملية الاجهاض ؟

ـ اجل ·

ـ ولكنها عملية يحرمها القانون · اتعرفين ؟ ·

ـ لا داعى لهذا اللف والدوران ·· أتريد ان تجريها أم لا ؟

ـ تماما كالشحاذ الذى يقول « حسنة وانا سيدك » ·· انى على استعداد لأن أهبك حسنة على أن اكون انا سيدك وعلى أن ارغم انفك الأشم ·

ـ سادفع لك ثمن العملية ·

ـ أريد الثمن الذى احدده انا ·

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لا اظنك تبخلين على منقذك من مصابك بما منحتيه للذى وهبك المصاب · أم ترانى طلبت شيئا كثيرا ! ان الجزاء من جنس العمل ، ولا اظننا سنحتاج الى اجراء عملية أخرى ·

وكان هذا منتهى الاذلال · ولم تستطع الفتاة أن تحتمل اقوال

النذل ، فرفعت كفها وهوت عليه بصفعة شديد ثم غادرت الدار ٠

ولم يكن هناك وسيلة بعد هذا سوى الالتجاء الى القابلة التى تعرفها أم احمد ، وهناك كانت الخاتمة ٠

وصمت الرجل برهة ، ثم عاد يتحسس المسدس فى جيبه وأردف قائلا :

ــ ولقد صممت على ان انتقم ولا استريح حتى اقتلهما : الآثم الأول والآثم الثانى ٠

اما الأول فانى لم أعرف عنه شيئا بعد ، ولكن أغلب الظن أن المرأة العجوز تعرفه ولكنها تصر على انكارها معرفته ، وانى أعتقد اننى ببعض الضغط استطيع أن أعرفه منها ٠

ــ والثانى ؟

ــ الطبيب النذل المجرم ٠٠ الذى لولاه لما ذهبت الى القابلة ولما سفك دمها فى الأزقة المنتنة العفنة ٠٠ ؟

ــ هل عرفته ٠٠ ؟

ــ أجل ٠ لقد وصفته لى العجوز جيدا حتى انطبعت صورته فى ذهنى ، وحتى بت استطيع تمييزه بين آلاف الوجوه ٠ سالتقى به عاجلا أو آجلا ٠ وساضع فوهة المسدس على جسده ٠ هكذا ٠ ثم اطلق ٠ لا تخش شيئا لقد قلت لك ان سقاطة الأمان فى محلها ٠

وعاد الرجل يضع فوهة المسدس على معدتى ٠ ورغم أنه أخبرنى أن سقاطة الأمان فى محلها فلم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى جسدى ٠

لقد باتت حياتى معلقة بسقاطة الأمان ٠

ان الرجل مجنون ما فى ذلك شك ٠ وأغلب الظن أن قصته كلها من بنات الأوهام ٠

واستطرد الرجل قائلا :

ـ انى أعرف أوصافه جيدا · انه متوسط القامة ·

ورأيت نفسى دون أن أدرى أحدق فى المرآة المواجهة ·· خشية أن تنطبق أوصاف الرجل على فتكون الكارثة ·

وعاد الرجل يتمم أوصافه قائلا :

ـ متوسط القامة ·· أحمر الشعر · بوجهه كثير من النمش ، وبصدغه الأيمن أثر جرح طويل ·

وحمدت الله انى لم أجد بشعرى حمرة ولا بوجهى نمشا ولا بصدغى أثر جرح · ولكنى لدهشتى الشديدة وجدت الوجه الموصوف لا يبعد كثيرا عن وجهى الذى أبصره فى المرآة ·

أجل · لقد كان هو نفسه أحد الرجلين الجالسين فى مواجهتنا · ورأيت جفنيه يرتجفان · ولم أشك فى أنه كان يسمع كل ما دار بيننا من حديث · وفتح عينيه فالتقتا بعينى الرجل صاحب المسدس وران الصمت لبضع لحظات · وتوقعت أن ينطلق المسدس · وأخذت أنتظر الدوى · ولكن حدث فى لمح البصر ، وقبل أن ينطلق المسدس أن أبصرت الرجل ذو الشعر الأحمر ينهض بسرعة ثم يقفز من نافذة القطار وتطويه الظلمات المدلهمة ·

ورأيت صاحب المسدس ينظر الى النافذة ثم يتنفس الصعداء ويقول :

ـ هذا واحد · الحمد لله · لقد وفر على مشقة اطلاق الرصاص · لا بد أن عظامه الآن تتهشم وتتفتت ··

ولأول مرة أبصر الرجل الرابع الذى كان يجلس فى مواجهتى يفتح عينيه ويقول بهدوء وسخرية :

ـ تتهشم وتتفتت أيها الأحمق ! ان القطار يسير ببطء · انه لا شك يقف الآن سليما معافى · اقفز وراءه واردهْ قتيلا · لا تدع فرصة العمر تفلت منك ·

وفى ثانية أخرى أبصرت صاحب المسدس يقفز الى النافذة ثم يقذف منها نفسه صائحا :

ــ أجل ٠ أجل ٠ معك حق ٠٠ لا بد أن أجهز عليه ٠

وران الصمت ثانية ، ثم سمعت الرجل الباقى يتنفس الصعداء ويقول :

ــ الحمد لله على أنه لا يعرف أوصاف الآثم الأول ٠ لقد كان لا بد من ذهابه ، والا ٠ من يدرى فقد تنبئه عجوز النحس بها ٠٠ وتكون الطامة الكبرى ٠٠ الحمد لله ٠

ثم أغمض عينيه وعاود سباته العميق ٠

وهززت رأسى فى دهش وساءلت نفسى :

ــ أهكذا دائما ينجو الآثم الأول ؟

رجـــل منتقم

ومضت لحظة من التردد والخوف وهو يقبض على عنق الشيخ ويضع يده على فمه ، خشية ان يكون العابر الجديد قد ابصره وهو يجذب الشيخ الى داخل القصب ٠

الليل حالك ٠٠ والظلمة شاملة ٠٠ والسكون سائد ٠٠ والصمت مخيم ٠

وما من صوت هناك الا فحيح الريح تدفع امامها أطراف أعـواد القصب ، فتميل امامها فى امواج متتابعة متتالية ٠

وبين الأعواد الخضر المتكاثفة ٠٠ اخذ شبح يتسلل فى الظلمة كأنه ذئب يسترق الخطى ٠

ولو استطعنا أن نكشف حجب الظلام لنستبين ملامحه لراعنا منه كثير من قسوة ، وكثير من عزم ، وكثير من شرود ٠

كان الرجل يوشك أن يبلغ هدفه ، هدف العمر الذى طالما حث الخطى للوصول اليه ٠٠ والذى تركزت لبلوغه جهوده وجهود أهله من قبله ، حتى أوشك هو أن يتم سعيه ولم يبق لتحقيق غرضه الا النزر اليسير ٠

اجل ! بعد طول السعى والكد والحل والترحال ·· قد وصل اخيرا ولم يعد بينه وبين الثار سوى خطوات معدودات قصار ·

الثار ! لم يتحرق اليه ؟ ويتلهف عليه ؟ انه يشعر بنشوة من مجرد الاحساس بانه يوشك أن يقدم على تنفيذه ، والشعور بأن الساعة المرتقبة قد أزفت ، والأمل المرجو يوشك أن يتحقق ·

ان السنين المتوالية لم تطفىء فى قلبه الحرقة المتاججة ، ولا استطاع الزمن أن يبرىء بالنسيان حزنا دفينا ، ولوعة كامنة ·

انه يذكر اباه ومصرعه كما لو كان قد حدث بالأمس القريب ، يذكر رقدته على حافة القناة بين كوم الغاب والدماء الحارة القانية تنزف من جرح فى جانبه وتخضب ثيـــابه وهو يئن انينا خافتا ، وانفاسه تخرج من صدره ، متحشرجة متقطعة ·

وفى صوت متهدج ·· ساله اباه الا يترك الثار ·· وأن يقتص من قاتله بيده ، والا يدع دمه يضيع هدرا ·

وكان يستمع الى أبيه مشدوها مذهولا لا يكاد يصدق عينيه ولا اذنيه ، ولم يملك ان يجيبه بغير الانحناء عليه وضمه الى صدره محاولا أن يبعد عنه عادية الموت ، ســــائلا اياه الا يموت ويتركه وحده ·

ولكن بعـد لحظات لم يجد بين يديه سوى أذن صماء ·· وفم صامت مطبـق ·· وأطراف متداعية متراخية ·· وجثـة مسجاة لا حراك بها ·

كان وقتذاك صبيا غريرا ، ولم يكن له بعد أن ماتت امه سوى أبيه العطوف الحنون ، ولم يكن يطوف بذهنه قط أن اباه يمكن ان يذهب عنه هكذا ــ فى مثل لمح البصر ــ ويتركه وحده ·

واحس بالمرارة تفيض بنفسه ·· لقد كان يعلم بالعداوة القائمة بينهم وبين أسرة مجاورة ، وكان يعلم ان بين الأسرتين ثارا قديما ،

ولكنه لم يخطر له على بال قط أن يذهب أبوه الطيب الكريم ضحيته !

ان أباه لم يرتكب اثما حتى يقع عليه القصاص · ومن الظلم أن يحمل انسان جرم انسان آخر ·

وجلس بجوار الجسد المسجى يبكيه بكاء مرا ، ثم أفاق لنفسه أخيرا فوجد أن البكاء لن يجدى نفعا · فما هو بمعيد أبيه ، وما هو بمطفيء حرقته ·

شيء واحد ·· يستخلص لأبيه حقه ·· وهو الذى يمكن أن يهبه العزاء ، وهو الثار !

انه لن يظلم أحدا كما ظلم أبوه ، ولن يأخذ بجرم القاتل انسانا بريئا ، بل سيوقع القصاص على القاتل نفسه !

ونهض من مكانه فى عزم وقوة ، ولم تشرق الشمس عليه الا وقد وارى أباه الثرى ·· وطوى فى باطن الأرض كل اثر لمصرعه ·

وأصبح أهل القرية ، فاذا بثلاثة منهم قد اختفوا من القرية وعفت آثارهم ، القتيل والقاتل والآخذ بالثار ·· واحد يثوى ببطن الأرض ، واثنان يضربان متلاحقان فى ظاهرها ·

لقد خرج يقتفى اثر غريمه ·

ومنذ ذلك الحين وهو هائم شارد ، لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار ·· وخرج بنفسه من زمرة الأحياء ·· حتى بات كالشبح السارى أو الروح الضالة الهائمة ·

ومرت السنون ، وهو يضرب هنا وهناك ، فى المشرق تارة وفى المغرب أخرى ·· مقبل مرة ، مدبر مرة ، وفى كل خطوة يخطوها وفعل يأتيه ·· ليس له من هدف سوى تعقب آثار غريمه والثار منه ·

ولم يكن له من خطة أو تدبير ، فقد كان كل ما يهدف اليه هو أن يعثر عليه ·· أما طريقة الثار فقد كانت عنده سهلة هينة ، لقد كان

مصمما على أن يرديه صريعا أينما وحينما يجده ، بلا تفكير ولا تدبير ٠

ان كل ما يريده هو أن يشفى غليله بقتله ، اما ما يحدث له بعد ذلك ، فكان اتفه من ان يفكر فيه ٠

ان مصير نفسه لم يكن يعنيه فى شىء ، اما مصير غريمه فكان هو كل شىء ٠٠ ان حياته لها قيمة ، لأنها ستضع حدا لحياة خصمة ٠٠ أما بعد ذلك ولغير ذلك ، فانها هباء فى هباء ٠

واستمرت المطاردة يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام ، والحقد مستعر ، والضغينة متأججة ، لا هدوء ولا سكينة ، ولا نسيان ٠ كل تعب يهون ما دام يقربه من هدفه ، وكل شقاء وشظف فى العيش يحتمل ما دام يدنيه من بغيته ٠

واخيرا ٠٠ وبعد طول صبر وأناة ، ورحيل ومهاجرة بلغ الهدف ٠ أو قل أصبح منه قاب قوسين أو أدنى ٠

لقد وجد الغريم فى النهاية بعد مضى هذه السنين الطويلة شيخا وأهن العظم اشيب الشعر ٠٠ ولكنه كان هو ٠٠٠ هو الأمنية المنشودة ، والهدف المقصود ، الذى اجج الحقد ، والهب البغضاء ٠٠ المجرم القاتل ، الذى اردى اباه صريعا مضرجا بدمائه ، والذى افقده يانع عمره وأرقده بلا ذنب جثة هامدة بين الثرى ٠

لقد لقيه اخيرا بعد طول جهد وكثير مشقة وعناء ، وكان قمينا ، وهو المتحرق شوقا الى الثأر ، بأن يرديه قتيلا فى ساعته ٠٠

ولكنه لم يفعل !

لم يفعل ، وهو المتعجل المتلهف الذى كان يأكل صدره الحقد ، والذى لم يكن يبغى الا قتل غريمه بلا خطة ولا تدبير ولا تفكير فى الهروب ٠

لم يفعل ·· وهو الذى كان لا يعنيه مصيره فى شىء ·· بل كان مصير خصمه ـ أو انهاء مصيره ـ هو كل شىء ·

لم يفعل لسبب واحد ، وهو ان مصيره هو قد اصبح يعنيه !

لم يفعل ، من اجل الأعين النجل ·

الأعين النجل ! وجدائل الليل ! والوجه القمر ·

كل ذلك قد جعله يعنى بمصيره ، وجعل لحياته قيمة ·

لو لم يصادفها قبيل النهاية لكان كل شىء قد انتهى ولكان القاتل قد لقى حتفه · ولكان هو يقف فى شجاعة وهدوء ليقول للملأ : « انا الذى قتلته لأنه قتل ابى ·· لقد اخذته بذنبه ، واخذ هو ابى بلا ذنب ·· افعلوا بى ما شئتم ، خذوا حياتى ، فقد فعلت بها ما أردت ·· اما ما تبقى فما عاد يعنينى فى شىء » ·

لقد كان حريا بأن يفعل ذلك ، ويقول ذلك ·· اما الآن وقد لقيها ·· اما الآن وقد اضحى ما تبقى من حياته يعنيه كما عناه ما سلف منها ·· أما الآن ومصيره لم يعد ملكه بل اضحى ملكهما معا ، فقد كان اجبن ـ او أعقل ـ من ان يفعل ·

لقد كان عليه ان يتروى ويتأنى ·

ان الثأر لا بد منه ، وقد بات فى يده ، ولكنه لم يكن هناك مبرر لأن يلقى بنفسه الى التهلكة ، اذا كان يستطيع أن يبلغ أمنيته وهو فى مأمن ، ويردى خصمه وهو بمنجاة من العقاب ·

كان الأمر سهلا ·· فقد كان يستطيع ان يتصيد غريمه فى حلكة الليل وهو عائد وحده الى داره بعد أن عرف موعده وعرف خط سيره وطريق مروره ·

كان عليه ان يختبىء بجوار الساقية القديمة وسط أعواد القصب المتكاثفة · فاذا ما مر به الرجل فى الطريق الضيق الذى يمر وسط

حقل القصب ، فليس عليه الا ان يمد يده فيمسك بعنقه ويضغط علي حتى يكتم انفاسه ثم يلقى به في الساقية القديمة الخربة ٠

وينطلق بعد ذلك لينعم معها بحياة هادئة ناعمة ٠

ودنت الساعة الرهيبة التى طال به انتظارها ، واقبل الليل يرخى سدوله على الجريمة التى توشك أن تقع ، وسار متسللا بين أعواد القصب ٠ وقد طافت بذهنه كل الذكريات الذاهبة ، وتراءت له عينا أبيه الخابيتان وصوته المتهدج يدعو للثار ، وتراءت له بجوارهما الأعين النجل ، والصوت الناعم يدعوه لأن يترفق بنفسه ٠٠ وأن يذكر أن مصيره ليس ملكه ٠

واقترب من الساقية ٠٠ وخفق قلبه ٠٠ وهو الشجاع القوى ٠٠ وارتجفت أطرافه وهو الصلب الجرىء . الثابت الجنان ، وهبت الريح فبعث فحيحها فى نفسه نوعا من الهلع لم يدر علته ، ولكنه تمالك وتماسك ، وهدأ من روعه ، وأزال من رهبته ٠

وجلس بين الأعواد الخضر يرقب وينتظر ٠

وزاده الانتظار قلقا ورهبة ، ولكنه عاد يطمئن نفسه ٠

بضع دقائق اخرى ويستريح من عبئه ٠٠ بضـــع دقائق ويفى بوعده لأبيه ٠٠ ويجعله يستريح فى قبره ٠٠ بعد طول انتظار ٠

لقد بات الطير فى يده ، ولم تعد هناك قوة على الأرض تستطيع أن تجعله يفلت من مصيره المحتوم ٠

وأخذت الدقائق تمر طويلة مملة حتى خيل اليه أن الرجل قـد عدل عن العودة أو غير طريقه ٠

ومد رأسه من خلال القصب يستطلع الطريق ، ولكن الظلمة كانت حالكة ، وكان موقفه بجـوار الساقية فى منحنى الطـريق ، فهو لا يستطيع أن يبصر القادم الا بعد أن يلف مع الطريق ، ويصبح على قاب شبرين أو أدنى ٠٠

وفجأة سمع وقع اقدام تقترب فأخفى راسه بين الأعواد واخلد الى الصمت حتى كاد يوقف انفاسه ٠

وازدادت الخطوات اقترابا ، خطوات متثاقلة تصحبها عصا هى بلا شك عصا الشيخ ٠

اجل ! أجل ! انه هو بعينه ٠٠

واخيرا وصل الشيخ قبالته ، وتحقق هو من وجهه ومشيته ٠

وفى خفة الثعلب مد يده فقبض بها على عنقه ثم جذبه الى الداخل واضعا اليد الأخرى على فمه ٠

وقبل ان يبدأ فى الضغط على عنقه ، وصل الى اذنه صوت اقدام اخرى ٠٠ أسرع سيرا واخف وقعا ، كأن هنـــاك من يريد اللحاق بالشيخ ٠

ومضت لحظة من التردد والخوف وهو يقبض على عنق الشيخ ويضع يده على فمه ، خشية أن يكون العابر الجديد قد أبصره وهو يجذب الشيخ الى داخل القصب ٠٠ ولكنه سرعان ما تغلب على تردده وخوفه ، وصمم على أن ينجز مهمته فى حزم وسرعة ٠

وبدأ فى الضغط والخطوات تزداد اقترابا ، حتى بدا وكأنهـــا اجتازت منحنى الطريق وانها قد شارفت مكمنها ٠٠ وفجأة سمع صوتا نسائيا ناعما يشق أجواز الفضاء ، ويصيح مناديا فى لهفة :

ـ آبا ٠٠ آبا !

وبدا كأن صاحبة الصوت كانت تسير وراء الشيخ محاولة اللحاق به ، وانها افتقدته فجأة ، وتبينت اختفاءه بعد منحنى الطريق ، فصاحت تناديه ٠

ووقع الصوت فى مسمعه وقعا مخيفا مروعا ، لا لمجرد احساسه بأنه صادر من ابنة تستدعى أبا يوشك هو أن يرديه صريعا ٠٠

ولا لأن الصوت كان مفاجئا وسط ذلك السكون المخيف ٠٠

بل لسبب اكبر من هذا ٠

لقد كان الصوت ، صوتا مميزا عنده ، صوتا لا يخطئه ، كان صوت الأعين النجل .. ذلك الصوت الناعم الرقيق .. الذى كان يدعوه دائما لأن يترفق بنفسه ويذكر أن مصيره لم يعد ملكه !

لقد كان الصوت الآن يدعوه لأن يترفق بغريمه وأن يهبه مصيره بعد أن أصبح فى يده ، ويترك الثأر الذى أمضى العمر فى الجرى وراءه !

ومضت لحظة وهو قابض على عنق الرجل .. ورويدا رويدا بدا ضغط أصابعه يخف ، واستطاع الرجل أن يتنفس وأن يتكلم ، فصرخ مستنجدا بابنته :

واندفعت الابنة لتنجد اباها .

ووقف الاثنان وجها لوجه .. وما زالت أصابعه قابضة على عنق الشيخ .. وما زال ذهنه حائرا يتخبط بين ثأر أبيه ، وبين الأعين النجل المتوسلة اليه .

لم يكن فى استطاعته التحدث .. فلقد بهره صوتها .. وسحرته عيناها .

وترك الشيخ يفلت من يده .

ونظر الى الفتاة وقال هامسا :

ـ كنت أعتقد انه ما من قوة على الأرض تستطيع أن تنجى قاتل أبى من قبضة يدى .. أو ان تثنينى عن اخذ الثأر .. ولكنى لم اكن أعرف قوة تلك الأعين النجل ، عندما تتوسل ، ولم اكن اظن اننى سأصبح يوما من قوم الشاعر القائل :

نحن قوم تذيبنا الأعين النـ جل على اننا نذيب الحديدا

وهكذا جرف تيار الحب صخور البغضاء ، وعفا صاحب الثأر عن غريمه وعنقه بين أصابعه .

وتزوج الرجل ابنة غريمه .. ووضع حدا لخصومة دهر وعداوة عمر

رجـــل قـاتـل

لا اظنني بمستطيع أن اصـف لك الصدمة المروعة التي اصابتني بعد ان قرات خبر انتحارها ٠

واني لا اخشى ان اتهم بشيء فلا اظن أن هنـاك من سيفكر في القاء التهمة علي ٠

هل انا المجرم الأول ؟

و « انا » هذه بالطبع غير عائدة علي ٠٠ فما انا بمجرم أول ولا ثان ولا ثالث ٠٠ وما كانت لي بالجريمة المعروضة اية صلة ٠٠ سوى صلة العرض والنصح ٠

اما صاحب الرسالة ٠٠ وصاحب السؤال ، وصاحب الجريمة ٠٠ فهو الأخ « ع ٠ ح » الطالب بأحد المعاهد الأمريكية ٠

ولقد كتب الي من امريكا ٠٠ ليطلب المشورة ، ولمحت على الظرف طابع بريد الولايات المتحدة وختم بريد بنجامتون ٠٠ ولست أدري جنسيته بوجه التحديد ٠٠ وان كنت أرجح أنه عراقي ٠٠ فقد كتب الي خطابه بتاريخ (٥ آب ١٩٥٠) وأنا دائما يصلني من اهل العراق

خطابات مؤرخة بآب وآذار وغيرها من الشهور المحيرة التى حاولت حفظها عبثا .

★ ★ ★

وقرأت رسالة الأخ وتوقفت أمام الخاتمة التى قال فيها :

« كم أتمنى أن تجيبنى على سؤال يكاد يكتم أنفاسى ويرهق حواسى . هل أنا المجرم الأول المسؤول عن مصرعها ؟ أم أن دورى لم يكن سوى دور ثانوى .. جعلته المصادفات يبدو رئيسيا ودفعته الظروف الى أن يحتل فيها مكان الصدارة ؟ ! أجبنى صراحة فانى أرزح تحت عبء من الشك ثقيل مخيف ينوء به كاهلى وينقض به ظهرى .

لن أعطيك عنوانى . فلست أريد ردا خاصا .. بل دعها تكون قضية عامة يشترك فيها قراؤك .. ولا أظن هناك مانعا لدى من نشر كل ماكتبت لك .. ومع أى تحوير أو تصليح تود اجراءه بشرط واحد ، وهو أن تبقى على أساس القصة » .

ولست أظننى الا مجيبا الأخ الى مطلبه فى نشر رسالته بلا تحوير ولا تعديل .. اللهم الا اضافة بعض التفاصيل ، التى تشوق القارىء ، والتى أبى هو ذكرها فى رسالته المقتضبة خوفا من الملل .

ولقد اعتمدت فى روايتها على التجارب والخيال .. فعسى ألا أكون قد جانبت الحقيقة .. فان كنت .. فليعذرنى .. وليعتبر هذه الاضافة من باب التحوير والتعديل الذى سمح هو به ، وليتفضل بعد ذلك مشكورا — ان كان ينوى أن يقدم على جريمة أخرى — أن يرسل لى كل التفاصيل عن جريمته الجديدة ، وليتفضل كذلك كل قارىء غيره يسألنى عرض قضيته ويطلب الشورى أن يذكر هذه التفاصيل التى قد يعتبرها تافهة بلا خوف من ملل او خشية من اسهاب .



ساكتب لك قصة حقيقية جرت حوادثها لغريب في أمريكا ووضع القدر خاتمتها منذ أيام قلائل .. أو يبدو أنه قد وضعها ، وان كان الشك يساورني في أنه ما زال لها بقية .

انها قصة طالب من الشرق وفتاة من الغرب ، ألف بينهما ما لا يقف في سبيله شرق ولا غرب .. ولا يعترف بتقاليد ولا اجناس ولا اديان .

الف بينهما جامح جارف جبار . جامح من الهوى . جارف من الغرام . جبار من الحب .

لقيتها ذات مرة .. كيف . ؟ واين . ؟ ومتى . ؟

وماذا تهم هذه الاشياء التافهة القيمة بالنسبة للقاء فعلا .. ؟

ان الزمن والمكان والظروف لم تعد لها قيمتها في حب العالم الجديد .. العالم الصاخب السريع .

لم القها بالطبع في روضة غناء فيحاء ، ذات ليلة هادئة النسيم ، خفاقة النجوم ، يسترق القمر فيها الخطى خلف منثور السحاب فيرسل اشعته فضية متقطعة .

لم القها بين عبق الزهور وشدو الطيور وحفيف الورق وترنيم الورق !

لم القها بين شيء من هذا كله .. فلا فجر ولا سحر ولا طير ولا زهر ، ولا أي أثر لهذه الأشياء التي تخرج بها جوك الشاعري في قصصك الغرامية .

لم القها في جو شاعري .. بل لقيتها في جو عادي مليء بالصخب والضجيج والزحام والمارة والحركة والأصوات المتنافرة .

ومع ذلك فقد أرهفت مشاعرنا .. تماما كما لو كان اللقاء في الروضة تحت القمر وبين الزهور .

ان كل هذه اشياء مساعدة أما الأصل .. أصل الهوى والجوى

فكامن فى الصدور راقد بين الحنايا ، ولو وضع العشاق فى الجحيم لما كفت قلوبهم عن الحب ٠

قرب اللقاء العابر بيننا ٠٠ بأسرع مما يتصور انسان ٠٠ فقد صادف كل منا هوى فى نفس صاحبه ، وكاننا قطبان مغناطيسيان متضادان ٠٠ لم يكادا يتقاربان حتى اندفع كل منهما تجاه الآخر ٠

وافترقنا على موعد ٠٠ ثم التقينا فى الموعد ٠٠ وقضينا معا فى نيويورك يومين وليلتين لم يشعر احدنا خلالهما انه يصاحب غريبا فرقت بينهما المولد والنشأة والتربية والجنس والدين ٠٠ ولم يلتق واياه بالأمس القريب ٠٠ بل كان يحس كل منا لصاحبه انه رفيق عمر وزميل صبا ٠

لقد قضينا معا فترة مليئة بالبشر ، حافلة بالأنس والمتعة ، فترة مختلسة من السعادة ، مسروقة من النعيم ٠٠ نلت خلالها من الفتاة اقصى ما يريد رجل من امرأة ثم عدت بها فى النهاية الى بلدتها وانا متخم ريان ٠

ولا اكذبك القول اذا ما قلت لك انها لم تكن المغامرة الأولى ، بل ان مجرد قولى عنها مغامرة يعتبر مغالاة فى القول ٠ فهذه النزهات مع الفتيات الامريكيات كانت اشياء طبيعية متكررة دائمة الحدوث ٠ وكنت اقضى معهن يوما أو يومين ثم أعود بهن الى دورهن أو بلدتهن ٠ فاودعهن وينتهى بعد ذلك كل ما بيننا ونفترق كان لم يكن بيننا لقاء ولا صلة ٠

لقد كانت صحبتى لهن دائما تنتهى بفرقة عاجلة ٠٠ فانى بطبعى سريع الملل ٠٠ لا اكاد انال منهن ماربى واقضى وطرى حتى يضيق صدرى بهن ، وتتملكنى السأمة من صحبتهن فأسرع بفراقهن ٠

اما هذه ٠٠ فلدهشتى الشديدة ٠٠ لم تكن كالسابقات ٠

لقد لقيتها كما لقيتهن ٠٠ وفعلت بها ما فعلت بهن ٠٠ ومع ذلك

فما ضاق صدرى بها ولا أصابنى منها ملل ولا سامة ·· ولولا رغبتها فى العودة لما رضيت بفرقتها ·

على النقيض ·· انى لم أكد انال منها ما نلت ·· حتى ازدادت رغبتى فيها ، واشتدت لهفتى عليها ·· واستعر فى قلبى الشوق وتأجج الحنين . ولم افارقها الا وأنا كاره للفرقة مشفق على نفسى منها ·

وودعتها مرغما ·· ودعتها جسدا ·· ولكنى لم أودعها قلبا ولا ذهنا ·· فقد ابت صورتها أن تفارق ذهنى ·· وأبى رسمها أن يودع قلبى ، وظلت على البعد باقية حاضرة تلح ذكراها على نفسى ·· ويملأ طيفها رأسى ويملك تفكيرى ·

ووجدتنى افكر فى مسالتها تفكيرا جديا ، واسمو بها فى هـذا التفكير عن كل من لقيت من غيرها من الصاحبات العابرات ، واجعل منها نسيج وحدها . ويزداد بى التفكير يوما بعد يوم ·· ويشتد الحب والشوق ·· وتزداد خطوط رسمها عمقا فى قلبى وفى ذهنى حتى تثبت وكأنها جزءا منى لا يتجزأ . وتصبح لدى شيئا حيويا ، وانتهى بى الامر الى أن تركز تفكيرى فى نقطة واحـدة ·· وهى الزواج ·

أجل لقد سموت بها فى تفكيرى ·· حتى وضعتها منى موضع شريكة العمر ·· وتوأم النفس ·

وذهبت الى بيتها بعد أن عقدت النية على التقدم لخطبتها ·

وفى بيتها لقيتنى مرحبة هاشة باشة ·· وقدمت الى شابا فى ثياب جنود فرقة الـ « مرنيه » ·

قدمته الى على أنه فتاها ·· أو كما يقولون هنا : عشيقها ·

وباستفسار بسيط علمت انها تعرفه منذ شهور طويلة . وأنهمـا متفقان على الزواج منذ زمن ·

واصابتنى من قولها صدمة شديدة ‥ واحسست فى صدرى بخليط صاخب من الغضب والغيرة والفجيعة واليأس ٠

وقد أكون خاطئا فى غضبى وفى فجيعتى ‥ وقد تكون المسألة برمتها شيئا طبيعيا ‥ كان يجب أن انتظره واتوقعه لا سيما ونحن فى بلد التحرر والانطلاق ‥ ولا سيما وأنا نفسى انال ما اناله من الفتيات بمنتهى السهولة ٠

ولكن ماذا اقول للقلب الأحمق المجنون ‥ الذى ابى الا ان ينطلق وراءها ويتشبث بها ‥ ويجعل منها شيئا ملكا له خاصا به ؟ !

ماذا اقول فى النفس اللهفى والذهن المخدوع الجاهل ‥ الذى ابى الا أن يصور منها مخلوقة سامية لم تقع الا فى حبائله ولم تفرط الا له ؟

لقد كانت الصدمة شديدة والطعنة قاسية ‥ لا لأن الفتاة ظهرت لى بما لا يجب أن تكون عليه ‥ بل لانها ظهرت لى كما لم يصورها به الذهن ‥ انها هدمت قصور أوهامى ‥ وقوضت عرش أمانى ‥ وخذلت مشروعاتى خذلانا شديدا ٠

ولم افاتحها بالطبع فى خطبة ولا زواج ‥ بل مكثت عندها هنيهة واجما مطرقا شاردا ‥ ثم ودعتها وانصرفت ٠

وعدت الى دارى مثقل النفس بالهموم والأحزان ، متعب الذهن ، مكروب الصدر ، وقضيت الليل مسهدا اتململ على الفراش أزفر جوى ووجدا ٠

وفى الصباح استقر بى الرأى على أن القى تلك الجمرات التى تتأجج فى صدرى ، وان اذهب اليها فافضى اليها بكل ما فى نفسى والقى اليها برأيى فيها ‥ والطمها كما لطمتنى ٠

وذهبت اليها ‥ فلقيتنى بنفس البشاشة والترحيب ، وخلوت بها،

وبدأتنى بالسؤال عن سبب ذلك الحزن والوجوم البادى على وجهى فقلت لها فى صوت مرتجف :

ــ أنت السبب ٠

ــ أنا ؟ ٠

ــ اجل أنت ٠

ــ انى لا اذكر انى فعلت ما يغضبك ! ٠

ــ بل فعلت ما مزقنى وحطمنى ٠٠ لقد خدعتنى وغررت بى ٠٠ لقد بدوت لى أسمى واطهر وأجمل قلبا من سواك ٠٠ فوجدت نفسى اتردى فى هاوية حبك واتشبث بك تشبث غريق بلوح من حطام سفينة ٠٠ واتعلق بك تعلق مجنون ٠٠ لقد غررت بى فى اليومين اللذين صحبتك فيهما ومنحتنى ما ظننت انك خصصتنى به وحدى ، وبدا لى انك أحببتنى كما أحببتك ولم يخطر ببالى أنك مخطوبة توشكين على الزواج ٠٠ حتى اتيت بالامس لأسالك الزواج منى ، ولكنى وجدت اننى كنت عندك مجرد أداة لهو وتسلية ٠٠ وأن صحبتك لى كانت احدى الخيانات المتكررة التى تهدينها الى فتــاك المحبوب وخطيبك العزيز ٠٠ لقد جئتك لأقول لك حقيقة رأيى فيك ولأعتذر لك عن الحمق الذى دفعنى الى أن اتوهمك بتلك الصورة التى توهمتك بها ٠٠ وعن الغرور الذى دفعنى الى أن أجعل منك نسيج وحدك ٠٠ وشيئا نقيــا غير هذه القذارة التى خلقت منها انت وسواك ٠

وبهتت الفتاة ، ولم تنبس ببنت شفة ووجدتها تطرق برأسها ، وخيل الى أنى المح فى عينيها طبقة من الدموع تترقرق ٠

اقول خيل الى ٠٠ فقد يكون ما رأيت سراب مخدوع ٠

وغادرتها بلا كلمة ٠٠ ولا تحية ٠

وسرت فى الطريق ، وأنا شاعر بأنى قد القيت عن كاهلى ما اثقله، وعن صدرى ما أحرقه وأججه ٠

أجل ! لقد انتهى أمرى معهـا ، واستطعت ان ألفظ حبهـا مع الجمرات التى لفظتها من صدرى ٠

وتركت المدينة ذلك المساء عائدا الى مكان دراستى ٠٠ موقنا بأن القصة قد وصلت الى نهايتها ، وانى وضعت بثورتى عليها خاتمة لها ، ولكنى استيقظت فى الصباح لأقرأ فى احدى جرائد نيويورك ٠٠ ان الفتاة (ا ٠ س) وعمرها تسع عشرة سنة من كلية شيديور قد انتحرت باطلاق النار على نفسها فى السـاعة السادسة من صباح الأمس أى بعد مغادرتى اياها بمدة لا تتجاوز الاثنتى عشرة ساعة ٠٠ وقيل فى خبر الانتحار أن الأسباب لا تزال مجهولة ، ولكن المعتقد انها متعلقة بخلاف مع أحد أصحابها العديدين وقد أصيبت بعده بنـوبة يأس جعلتها تقدم على الانتحار ٠٠ وقد وجهت الصحيفة نداء الى كل من زارها أو قابلها فى اليوم السابق للانتحار للاتصال بالمحقق ٠

ولا أظننى بمستطيع أن أصف لك الصدمة المروعة التى أصابتنى بعد أن قرأت الخبر ٠

وانى لا أخشى أن اتهم بشيء ٠٠ فلا أظن أن هناك من سيفكر فى القاء التهمة على ٠٠ بل لا أظننى ساخطر قط ببال أحد ممن حولها ، فما كانت علاقتى بها فى نظرهم سوى علاقة عابرة طارئة ٠

ليس هناك أحد يمكن أن يتهمنى ٠٠ الا انسان واحد هو أنا ٠

أنا يا أخى حزين ونادم ويائس ٠

حزين عليها لانى ما زلت أحبها ٠٠ لقد تبدد من نفسى كل غضب عليها ٠٠ بعد ان ذهبت من دنيانا هـذه ٠٠ وأصبحت أتلهف على رؤيتها وتقبيل يدها مرة واحدة ٠٠ وأتمنى أن أجثـو على جدثها فاذرف عليه الدمع مدرارا ٠

ونادم ٠٠ لانى أشعر بينى وبين نفسى ٠٠ أننى السبب فى موتها أتراه الغرور الذى يدفعنى الى هذا الاحساس ؟

اتراها كانت تحبنى وانى نزلت من نفسها منزلة من يدفعها غضبه عليها الى الانتحار ؟

مهما يكن الأمر ٠٠ ومغرورا كنت أم غير مغرور ٠٠ فان ندمى شديد لانى واثق من انه حتى ولو لم اكن الوحيد فى حياتها الذى وهبته نفسها ، والذى فتحت له قلبها ، فاننى كنت الوحيـد الذى صدمها برأيه فيها ٠٠ والذى واجهها بحقيقة صورتها ٠

وانى يائس ٠٠ لانى لا أستطيع أن أفعل شيئا ٠

فلا انا بمستطيع اعادتها الى حياتها ٠٠ ولا انا بمستطيع ان اسلو حبها وانساها ٠٠ ولا انا بمستطيع ان اكفر عن خطيئتى ٠٠ بل ٠٠ حتى هذه الخطيئة ٠٠٠

لست بمستطيع أن اقنع بها نفسى ٠

هل أخطأت ؟

هل كنت السبب فى قتلها ؟

هل كانت ثورتى عليها هى التى أودت بها ؟

هل ترانى كنت حقا شيئا هاما الى هذه الدرجة ؟

هل انا المجرم الأول ؟

أجبنى يا سيدى ٠٠ انى حائر تعس ٠

اكره أن اكون المجرم ٠٠ واحب أن اكونه ٠

اكره أن اكون المجرم ٠٠ لأنى اكره الاجرام ٠٠ ولأنى اكره ان اكون السبب فى قتل هذه النفس الحلوة التى شغفت بها حبا ٠

ولكنى أعود فاتمنى أن اكون المجرم ٠٠ اتمنى أن اكون حقـا الانسان المهم فى حياتها والذى احبته الى الدرجة التى يدفعها غضبه عليها الى الانتحار ٠

اتمنى أن اكون كذلك ٠٠ حتى أوقن أنها كانت تحبنى ، والا يكون

انتحارها من أجل مخلوق آخر فى حياتها ٠٠ لا أعلم عنه شيئا ٠٠ والا أكون لديهم الا نسيا منسيا ٠

اجبنى يا سيدى ٠٠ أرحنى !

هل أنا المجرم الأول ؟

ليتنى أكونه ٠

المخلص

ع ٠ ح

★ ★ ★

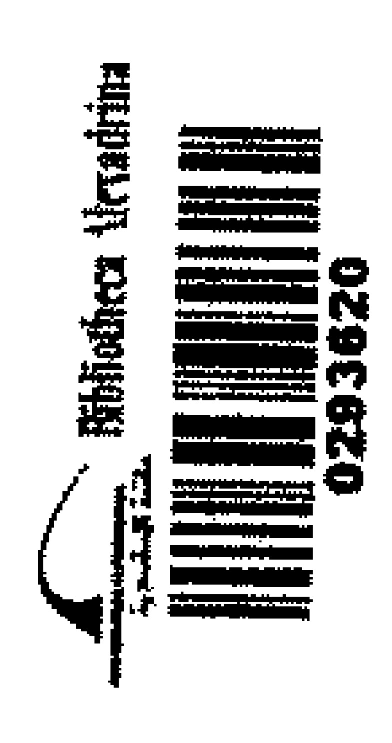
يا أخى ماذا أقول لك ٠٠ وأنت تتمنى أن تكون مجرماً ٠٠ حتى ترضى غرورك وكبرياءك ؟

خل عنك أوهامك ٠٠

أرح نفسك وانسها ٠٠ غفر الله لك ٠٠ ولها ٠ وللمجرم الحقيقى ٠

رقم الايداع ٧٤٢٢/ ٨٦

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٢٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه